موت عصفورة

چيلان حمزة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

الغلاف

للفنان سعيد المسيرى

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد



إهداء

إلى إبنتيّ جيهان ونيڤين

جانب من عذاباتكما كان يستفزنى فأتوحد مع نفسى
والملم الكلمات أحياناً كمداً منكما ودوماً عشقا لكما...
أصنع لكما عقداً ربما رضيتما أن ترتدياه يوماً ما
ولو لساعه من وقتكما.

ماما

چيلان



بين يدى المجموعة

طائفة من القصص القصيرة تشى بتمكن الكاتبة المبدعة الأستاذة چيلان حمزة، بعد أن أَثَّلَتْ مكانتها أَخواتها السالفات، إذ أصدرت مجلدين من أعمالها الكاملة فى الرواية: الحبيبة، ومسافرة مع الجراح، والزوجة الهاربة، وزوج فِى المزاد، وقدر الآخرين، واللعبة والحقيقة، ثم نشرت روايتها السابعة: جرح الحب، وها هى تطالع قراءها بمجموعتها «موت عصفورة» وهو نتاج خصب من جهة الكم والكيف، متنوعة ما بين الرواية المطولة، والقصة القصيرة، وهى فى المجالين وإن بدوا متشابهين – ذات ملكة نافذة أصيلة، يكاد كاتب هذه السطور يعرف المؤلفة بتجاربها وأدائها وإن لم تكن كلماتها ممهورة باسمها، ولعل قراء كثيرين يشاركونه هذه المعرفة، ويحمدون لصاحبتها فردية الرؤية وأصالة التعبير، وإذا كان الشعر ينماز فى كلام الشاعر المجيد عن

الكلام الآخر فى أجناسه الأدبية المتباينة، نظراً لأن الشعر فن ذاتى، فإن القصة القصيرة خاصة قريبة من الشعر فى هذه الصفة، وتشاركها الرواية وفنون القول الأخرى بقدر، وإن تَخَفَّى كاتبهما وراء نقاب من الشخوص التى يرسمها، ولعل هذا يفسر لنا ميل كاتب القصة أو الرواية إلى شخوص معينة، ورسم أجواء يميل إليها ولا يميل إليها نظيره، وهذا يعود بنا إلى أن العمل الأدبى تحت أى جنس هو فن ذاتى، وإن عبر كاتبه عن غير ذاته فى الظاهر القريب.

لا أعتقد أن هناك أدباً نسائياً وأدباً رجالياً، بينهما تخوم فاصلة، بل أعتقد أن هناك أدباً جيداً، لكن لا يعنى ذلك إلغاء الحواجز ولو بنسب ضئيلة، وقد ألمحت إلى شىء من هذا فى صدر هذه الكلمة، حين أدرك أن هذا الأدب نتاج چيلان حمزة، ولو لم يذكر اسمها، إذ لا تخفى شخصية الكاتبة بهواجسها وأحلامها، بالوسط الاجتماعى الذى ينشر ظله عليها، ولذا من الفهاهة أن ينسب هذا الأدب إلى رجل، أو إلى امرأة، إن لم تكن تلك المرأة هى چيلان حمزة الإنسانة والمبدعة على السواء، المجيدة فى تجاربها، والتقاط اللحظة الفنية، وفى أدائها الرائع، وحسبها أن تستظل بالمظلة «الإنسانية» العامة، ثم يبقى لها وهج من حسها النسائى.

العالم الذى تتحرك فيه چيلان حمزة هو العالم المعاصر بكل همومه وأوجاله، أو هو علاقة الأديبة المتوشجة بكل ما يعبر بها من تعقيدات النفس الإنسانية فى كهوفها المظلمة، المسْتَسِرَّة على غير النظرة الكاشفة، ومن ثم تستضىء المؤلفة بمصباح التحليلات النفسية بمعناها

الفنى، وتركن إلى تفسيرات الوعى أو اللاوعى فى أعماق شخوصها، ولعل قصتها «هناك شىء حدث» تشى بكثير من تلك الأوهام التى تتحكم فى مصائرنا دون أن نعيها الوعى الكافى، وتلمس المؤلفة ببراعة مكامن هذه الأوهام أو العقد، لتفسر كثيرا من الحوادث الظاهرة التى لايبدو فيها معقولية لأول وهلة.

والقصص فى أغلبها تعزف على هذا الوتر المشدود إذ تفطن الكاتبة بوعى وتمكن إلى العروق المستترة بين الصداقة والألفة والحب، والعادة، والشفقة، والإهمال، والبغض، ومدى إشتباك كل هذه المعانى، وكيف تفض هذا الاشتباك، بين أشياء فى غاية من التشابه، ولذا يسير المتلقى واعيا حين يكتشف ذاته من خلال اللعب الفنى فى اكتشاف الآخرين، ومن خلال الاستبطان الذاتى والسبر الدقيق لأطوار العلائق الإنسانية، تنمو، وتجالد، وتتوفر، وتحبط، وتقهر، وتموت إلا قليلا.

بيد أنى لاحظت أن چيلان حمزة تميل إلى رسم نساء تعدين طور المراهقة والشباب ووقفن على عتبات الكهولة أو النضج، لأن الأنثى - فى رأينا – لا تلحقها الكهولة، حيث تتجدد، كما أشار صديقنا القديم ابن الرومى بزكانته :

أهى شىء لاتسأمُ العينُ منه

أم لها كل ساعةٍ تجديدُ؟

تقف چيلان شديدة الخبرة، عميقة التعاطف مع تلك الطائفة من شخوصها الفنية، ويبدو الرجل - أى رجل - فى ظلال المشهد أو اللوحة،

وإن كان محور العلاقة، وربما كان هذا الإحساس المؤلفة بالزمن وأطواره، الإحساس الحاد الذى يتراءى من خلال البسمة المتجعدة، أو الشعرات البيض، التى تفضح الصبغة، أو السمنة، أو الزينة المجتلبة، إنه إحساس حاد فظيع ومخيف، تمسك بتلابيبه المؤلفة.

والمرأة فى شخوصها عامة امرأة مقهورة، حزينة، تثير شفقة المتلقى ، وتثير شجونه، وقد أفلحت المؤلفة فى أن تضم الرجل إلى جانبها متعاطفا وإن أمسك بمبضع الجراح لأنه يأسو الكلوم حين يُعمل هذا المبضع، وظهر هذا جليا فى كثير من قصصها فى ذرع القارئ أن يلمحه بنفسه، لكن القهر الذى نراه قهر مسوغ من ظروف الشخصية وظروف البيئة والتقاليد الإجتماعية الرازحة دون شفقة على المرأة خاصة والمجتمع عامة، وليس قهرا مجتلبا متصنعا، وكُدْه البكاء أو التباكى، بل هو القهر المرسوم بدقة فنية، تهيئ له الظروف المحيطة.

وجيلان حمزة من الكاتبات ذوات القصد فى التعبير، فلا يحس المتلقى أنها تريد ملء صفحات أو أنها تتزايد حشوا، بل يدرك أن الثوب التعبيرى «مفصل» على قد تجاربها، مع الأناقة التى يتطلبها السياق، سياق الأحداث، وسياق رسم الشخوص، وبالرغم من أن المرأة التى ترسمها فى سن معينة أشرنا إليها آنفا، فإنهما من جنس نساء لهن ملامح خاصة، لا امرأة واحدة تتكرر فى كل قصة، وإن بَدَوْنَ فى عمر متقارب ومشكلات متجانسة، وذلك عبء فنى آخر يستلزم طاقة جيدة من التخيل والتعبير.

ولغتها لغة امرأة أنيقة فيها «شياكة» ومعذرة لهذه الكلمة الأعجمية

التى عربناها الآن – لغة جميلة تلفتك إليها ببساطتها وسهولتها، ولكنها لا تنسى الريشة والأصباغ، قبل أن تخرج إلى الشارع والميدان، وإذا خرجت مسرعة دون وفاء حق المساحيق، فتجد لواذها فى العامية الطازجة التى حسبها سلامة العافية، وإن كانت لا تتواتر كثيرا، وأحيانا تتخفى وراء زينة الرمز الشفيف كما فى عنوان هذه المجموعة «موت عصفورة» رمزية التجربة ورمزية التعبير، غير أنها لا تغرق فى كهوف الغموض ودعاوى التعقيد، لأن صاحبتنا تملك فكرتها وتحسن التعبير عنها، ولا حاجة بها إلى ذلك الإغماض المدعى.

ولسنا نريد أن نأخذ على المتلنى مُتَوَجَهَهُ فنقف مع المجموعة قصة قصة، فحسبنا أن ألمحنا إلى شئ من هذا عامة، ونظن أن القارئ اللبيب سيدرك ما أدركنا وأكثر، وتحية لچيلان خمزة: خيالها المبدع، وأدائها الجميل.

أبو همّام

عادة

ما يدق قلبها قبل أن تطلبه... نبضه تهز جسدها قبل أن تلمس الهاتف وتتلاحق أنفاسها.. الفرحة تجتاحها لأنها ستسمع صوته وتتواصل معه رغم قصر مكالماته معها فتحاول أن تلملم شتات نفسها تستند على أقرب كرسى يصادفها وتنظر إلى الهاتف... إنه بعيد عنها... فتنتقل إلى مكان أقرب إليه.... ثم تنتقل إلى الأقرب ليكون فى متناولها. اليوم ستسأل عليه تعرف أن به وعكة بسيطة الإنفلونزا الشهيرة... قبل أن تتسرب حلاوة صوته وتتخلل روحها كان يشكرها بعبارة قصيرة جداً «شكراً على الورود»، ثم ترك السماعة إلى صديق مشترك لهما ليكمل حديثا لم يبدأ معه. باغتتها الحركة بضيق محسوس ولكنها اضطرت على الفور أن تتجاذب وصديقه أطراف حديث ما لأقل من دقيقتين... وصلها الإحساس كاملا بأنه أراد أن يتخلص منها بوجود هذا الصديق.

رياح الجفاء هبت على علاقتهما رغم حقيقة أنها تتنفس هواء يثير الحنين إليه بلا انقطاع. فمر باقى الأسبوع دون أن تعايشه عبر الهاتف. تروح وتجيء ولا تجرؤ أن تطلبه بل تقرر لنفسها بأنه – لو أراد – لكان يستطيع أن يتواصل معها لدقائق على وعد بأن يطلبها فى وقت آخر... ولكنه لم يفعل

البطاقة بين يديها تذكرها بدعوتها للمسرحية... اليوم افتتاح والحشد سيكون كبيراً والمؤلف زميل لها، أكد على ضرورة حضورها ولكن لا قدرة لديها على أن ترتدى ملابسها وتضع أوسع ابتسامة على وجهها لتهنئه وتحييه ولكن بعد تردد طويل ارتضت أن تذهب... تعرف أنها على غير عادة كل النساء تلبس فى دقائق... ولا ضرورة لقطرات العطر؛ فالوقت يجر بعضه بعضا إلى قرب الثامنة والطريق طويل... طويل ينتظرها. وهناك وقفت مع الواقفين لم يفتح باب الدخول بعد.

الكل يتسابق لتحية المؤلف؛ فتقدمت بدورها تشد على يده وتحدق فى وجهه وتجرى الكلمات «بألف مبروك... وعقبال المسرحية التالية» وهى تبعد عينيها عن وجهه فى نظرة غير مقصودة؛ لمحته داخلا مع صديقه الذى تجاذبت معه طرفاً من حديث اضطرت إليه؛ فارتعشت رعشة لم تتمكن من كبحها. اشتياقها إليه موج يتدفق بسخاء فى صدرها ليتركز على قسمات وجهها بمعنى واحد له وهج أكيد بعشق الحياه. ولا إراديا كانت تنفلت من أمام المؤلف وطارت اليه يداها الاثنتان يحتضنان كفه الدافئة «وحمداً لله على سلامتك.. الانفلونزا انتهت»؟ ضحك هو الآخر وهو يقول لها «لقد شفتنى ورودك» قبل أن

يسرى داخلها مذاق دفء كفه... قبل أن تحتوى تقاسيم وجهه داخل حدقتيها... قبل أن يكتمل إحساسها بأنها تسترده وسيمكنها أن تتواصل معه كان يتركها ليخترق الجموع يسلم على هذه ويربت على ظهر كف أخرى ثم يغوص أكثر يمينا أو يساراً بين الجموع ليرحب بهذه ويهلل لتلك فبقيت فى مكانها مشدوهة فلم يتبادل كلمة واحدة معها... بل تاه منها مسافات فى الزحام الضاج... وانتبهت على جرس المسرح واندفع الكل يدخل جماعات... الوحدة معنى أليف تعيشه... كأنها نبتة ضلت مكانها فوجدت فى أرض ليست لها... الشوك فى حلقها... وبرودة عصفت بها، فارتج لها جسدها ولم تجد ما تستند عليه فشدت حقيبتها بعنف إلى صدرها تضغط بها على قلبها تريد أن تسكت دقاته المجنونة وبدا لعينيها المكان فسيحاً أكثر مما تحتمل... مضاءً أكثر مما تحتمل... وحيدة وسط كل هذا الفراغ إلا من ظلها الملقى خلفها... غاب الوعى بالمكان عنها لثانية ولكن الأنوار المضاءة فى مدخل المسرح حين انغرزت فى حدقتيها عرفت المكان والزمان وقسوة اللحظات... سمعت صوت الموسيقى التى تسبق فتح الستار فبذلت جهداً أكبر من طاقتها لتستجمع نفسها وتندفع داخله... وتوالى الفصل الأول وهى تحاول أن تفهم أى معنى إلى أن أعلن عن استراحة قصيرة بين الفصلين فخرجت مرة أخرى مع الخارجين لتتناول فنجان شاى، ومن مكان اختارته وقفت ترقبه وهو يتنقل بين الحاضرين. الابتسامة مطبوعة على وجهه والحمرة تلونه وظاهره تحت شعيرات فوديه البيضاء وكلما خطا خطوتين أو ثلاثا ليجد مجموعة فكأن مغناطيسا يشده لينضم إليهم وينخرط فى حديث ما ثم يقصد مجموعة جديدة وهكذا... وهكذا دون

أن يحاول البحث عنها لتلتقى نظراتهما فى أقصر لقاء عرفه البشر!! وكأن هناك صوتا ما ينادى داخله ويجذبه بولع لا يقاوم ليتكلم هنا... وينغمس هناك. ومرة أخرى دق الجرس ليندفع الجميع إلى أخذ أماكنهم... مر من جوارها ولم يأبه... أشاح بوجهه ولم يتمهل لثانية واحدة.. وبقيت على وقفتها تحتسى الشاى حتى بعد أن فرغ الفنجان!! لقد وصلتها رسالته كاملة. كانت قد سألته أن يرتبطا منذ أكثر من أسبوع وقبل وعكته الأخيرة ووعدها أن يفكر فى الأمر.. الآن وصلها رده واضحاً.. ماذا بقى لها؟ مزيد من الإهمال والنكران المتعمد؟ ولفحة حريق شكت جلدها فسال العرق من مسامها حتى بلل ظهرها ففتحت فمها تأخذ أوسع شهيق وقبل أن يخرج زفيرها كانت تقتلع أولى خطواتها خارج المسرح.. تسترجع ما حدث طوال الطريق.. شيء ما ضاع منها تجاهه! تلك العملقة التى كانت تحسها فيه كلما رأته والتى ربما ساعد عليها طوله الفارع.. وقسمات وجهه الشفيفة خلف ابتسامة عفوية دائمة أيضا كان له نوع من ذكاء فطرى يعامل به كل من يحتك معه.. ولكن بقى أقوى أحاسيسها نحوه أن شيئا ما صغر الآن فيه وهذه الليلة بالذات والأكيد أنه بسبب تلك القسوة التى عاملها بها وذلك التجاهل المفجع من جانبه وهو الذى كان فارسها الوحيد فى عالم ألغى من قوانينه مفهوم الفروسية وسلوكها كان فى إمكانه أن يوصل لها رده القاطع وأن يحترم وجودها فى نفس الآن أما أن يتجاهلها بكل قدرته على الإيلام وبكل طاقته فهذا كان أكثر من احتمالها وأكثر مما تستحقه إنسانة اعتقدت فى لحظة ما أن لها الحرية فى أن تحب وأن ترتبط بمن تحب.

قبل الوداع

والغربة

تقطع الطريق إلى مصر الجديدة وضع كفه ليحتوى أصابعها؛ فاستكانت كالطير الذى أضناه إعصار المقادير.. مرت لحظاتها متتالية ونبضة فرح تجتاحها بمعنى الرضى.. استحال ضجيج الطريق صمتاً قدسيا فأسدلت جفنيها لتعيش عمق اللحظة عن آخرها.. بهدوء رفعت رقبتها ووسدت رأسها المقعد خلفها ولم تعرف إن كانت ترى أمامها انفتاح الطريق أم لا؟ متى راح النهار؟ وكيف أتى الليل .. كلها.. كلها اختزلت لتتكوم تحت كفه.. أين هى.. وما هو الزمن الذى تعيشه... وكم جرى بهما الوقت.. وهل الفجر حائر بين النور والظلمة.. فقد كان كل ما تعيه أنها تقتات الحياة من نبض كفه . وبدون مقدمات فلم يتغير شىء اجتاحتها فكرة أن تبكى.. هل تبكى بلا دمع وفى قلبها ما يغرق صحراء .. وهل يمكن إيقاف المطر.. شىء ما يترى داخلها دفعات..

دفعات ومع ذلك لم يفلت منها إحساسها بلذة أن يحتويها تحت كفه.. تحيا قمة الرضى وحضيض الألم ولم تكن تبكى حبها فلم تنته رحلتها معه وتعرف أنه لا يقدر أن ينتهى منها على الأقل الآن فحبهما مازال ينسج فصوله التمهيدية ولكن ما يضنيها أنها قررت أن تئد هذه العاطفة عند هذه الدرجة وفى هذه الليلة بالذات!! وعربد الموج فى عينيها جسورا ليبلل صدرها لأنها تعرف أنها قررت وأنها لن تتراجع.

كانا يعملان فى مجال واحد تقريباً وهى دائمة الاحتكاك به منذ أكثر من عشر سنوات وكانت تأنس إليه أيضاً ولكن منذ شهرين فقط تطورت علاقتهما لتأخذ مساراً أكثر وداً.. لا تدرى كيف حدث هذا! ولا متى حدث؟ وصارت الأقرب إليه.. دخلت عالمه وهالها أن تكتشف وكأنه إنسان مطارد. نفسه تطارد نفسه بجموحه المستعر إلى صخب الحياة والذى لا نهاية له. فدائرة معارفه أوسع دائرة وكلما اقتربت منه كان شديد الاستجابة والشوق لها ومع ذلك بدأ يعاملها بفلسفة الدائرة متعددة الدوائر فالليلة لابد أن يقابل وزيره وغدا له ارتباط بوكيل الوزارة وبعد غد يجهز لإحدى ندواته التى يتألق فيها وهكذا إلى أن تأتى أجازة نهاية الأسبوع لينقل نشاطه إلى الإسكندرية وهناك يقابل أحد مشاهير الطب والجراحة عالمياً ليعرف منه ويعرض عليه أفكاره حتى يأتى دورها فى الدائرة فيذهب إليها كطفل لم يجد المشى بعد يحتضنها ويفرح لوجودها القريب منه إلى أن يباغتهما الفجر الأكيد لتنقطع صلته تماما بها وينشغل بكل ذلك الشوق الذى بداخله ليبدأ ولمدة عشرة أيام المقابلات .. الدعوات.. التحضير للندوات.. التقاط الأطباء الزائرين .. بعدها تتصدر صورة العديد من الجرائد والمجلات.. البعض يحنق عليه

والبعض الآخر يرى فيه شعلة نشاط تحرك الأوساط الطبية والعلمية وتبقى هى مستكينة تنتظره وأيقنت أن دورها يأتى بين عشرات من الأيام مرة!! حبال الود وهت بينهما.. هناك العديد من الحكايات تود أن تهمس بها له ولكن متى ولقاؤهما يتباعد عشرات الأيام أو يزيد!؟

استجابتها له فى أوجها ومازال يتشبث بأصابعها والعربة الآن فى أقصى يمين الطريق.. الصمت أعلى من صخب أى كلمات بينهما فابتلعت لعابها أكثر من مرة وأحست للحياة بمذاق رحيق عذب معجون بمعنى الخلود. ندرة اللحظة أنبتت داخلها الرغبة فى الخلاص من تلك اللحظة بعينها لأنها لا تملكها لأنه معها الآن ولكنها لن تدرى شيئاً عنه فى الغد مهما اجتهدت. فى الغد سيضيع منها وستسرقه حياته الصاخبة وهو يعشق هذا النوع من الحياة بالذات! فعاودتها جسورة الرغبة فى الخلاص مهما كان الألم.

وهى تبذل جهداً أروع من احتمالها كانت تسحب نفسها من جواره وإن أبقت أصابعها لبرهة تتشبث بيده. معنى الولع به هو الدم الذى يدار به جسدها. كان ضوء الفجر مرئيا يطل عليها إلا أن نوره خفق فجأة فعاشت الوداع قبل أن يحين الوداع.. ظل واقفاً يطمئن عليها إلى أن توارت خلف باب الحديقة الحديدى.. وهى تصعد سلم بيتها. انفلتت منها الآه فوضعت يدها على صدرها لتوقف نفسها.. ومع أول خطوة لها كان كل ما فيها يبكى لأنها كانت أكثر إصراراً ويقينا بأن تئد هذه العلاقة.

موت عصفورة

فجأة

ضغط بباطن قدمه وبقوة على كابح عربته، فصرخت متوقفه بعجلاتها البيضاء العريضة، أقرب ما تكون للرصيف عند دوران السفارة الإنجليزية فى حى «جاردن سيتى». النظرات الشغوفة اتجهت ناحية مصدر الصوت من سائقى العربات الرابضة بدورها فى نفس المكان. الصرخة شدت استطلاع الجميع لبرهة.. وصلهم المعنى... زعقت العجلات فقط دون صدام. التى تجلس بجواره سرقت فى لمح البصر انتباههم. فارعة الجمال. تمد ذراعها بارتياح خلف مقعدة فيبدو إبطها من كم الثوب العارى. أميل لأن تكون أبنوسية اللون. لها عينان كاشفتان. دارت عيناها فى نصف دائرة فوجدت الدنيا واقفة من حولها رغم أن كل محركات العربات تعمل!! سحبت ذراعها الممدودة من خلفه فسترت إبطها، وإن برق أكثر من خاتم تتحلى بها وتتوزع بالتساوى

على أصابعها الخمسة شديدة النحول. لعبة الكراسى الموسيقية بدأت مع كل العربات من حولها. تتلكأ على وقفتها فى التقدم مترين أو ثلاثة، فالكل أدرك أن هناك امرأة تستحق أن يسترق إليها البصر بنظرة. وكأن كل قائد عربة أبلغ من يربض عن يمينه ومن يربض عن يساره، بخبر تلك القابعة فى العربة ذات العجلات البيضاء. وهى ظلت على سكينتها فى جلستها المريحة، أما صاحب العربة فهو رجل على عتبة الخمسينات، رغم تمسكه الأكيد بتلابيب الأربعينات. الذى لاشك فيه أن حياته رغدة. يده على عجلة القيادة تعطى الإحساس بالرفاهية. معروقة كيد ألف ألف رجل آخر، لكن شكل تقليم أظافره يؤكد معنى الرفاهية. بدا ضيق الصدر، وهو يعى أن لا حل ولا حيلة أمامه. لم يعثر فى عقله على أى مخرج. فبدأ يتجهم. لابد أنه يندم على صرخة الكابح تحت قدميه. لولاه ما التفت الجميع إلى من تجلس بجواره. ببطء التفت بدوره ناحيتها مدققاً. كان تألقها محسوساً. لا فائدة. يشعر بالجمع الواقف، عبر محاولات قصيرة المدى، يديرون عجلات القيادة يميناً ويساراً، متظاهرين بمحاولة ميئوس منها للخروج. وإذا نجح أحدهم أن يتسرب فى بطء من حوله، فإنه لا ينسى أن يشرئب بعنقه أو يلمحها بجنب عينه.

يبدو أنها لجنة تراجع التراخيص. إلى أن يأتى عليه الدور أمامه دقائق ستطول. غبش بداية الغروب الصيفى لف الحشد كله، فأسرعت العربات إلى إشعال الأنوار المبكرة. وصاحب العربة اكتفى بعينيها الكاشفتين فازداد تجهماً. أما هى فتحركت ومالت بجسدها فجأة إلى الأمام. لقد انتبهت على صوت زقزقة طويلة لعصفورة حطت قرب

وقفة العربة، كأنها نفرت من على فرع إحدى الشجرات النابتة فى تحد فوق غابة الأسفلت التى يقفون بينها... هذه العصفورة كانت سبب ابتسامتها. صوبت عينيها إلى من يجلس بجوارها ففهم رسالتها إليه. مال نحوها أكثر يحاول رؤية مصدر الصوت، وهى تكور من تقاطيع وجهها وتمد فمها الصغير إلى الأمام وتغمغم: عصفورة.. عصفورة. مال ناحيتها أكثر ومازالت يده على عجلة القيادة. حلا له أن يقبلها، خطفاً؛ فالظلمة توشك أن تحط. لم تتمنع وإن بدت مبهورة. وفجأة تحركت كل العربات. انطلقت بسرعات متباينة، وأصوات الأبواق كثيفة ومتنوعة. ولا إرادياً. اندفع هو الآخر ولم يعتدل فى جلسته بعد. إلا أنه سار مع الركب، وتحت عجلاته كانت العصفورة تلفظ أنفاسها، وقبل أن يقرر زيادة سرعته أكثر لتتلاءم مع الركب القلق من حوله. فى هذه اللحظة سحب طفل كان يقف على الرصيف يده من قبضة أمه وهما يعبران الطريق. كان الطفل أقرب للأرض، فالتقط بكفه الصغيرة العصفورة من تحت الرصيف. كانت لاتزال تنبض نبضات سريعة متلاحقة. لم يكن من الأم إلا أن خبطت بكفها ظهر يد الطفل فوقعت العصفورة، وماتت الشهقة فى فمه الصغير. بينما الأم تقول بحدة لم يسمعها أحد من سائقى العربات: «عصفورة ميتة.. يعنى مليانة ميكروبات»!



المذيعة

كل يوم تعرف معنى الروعة للحن الجديد... لأنها تمتزج به... تمتص عبقه... لحن خروجها إلى الحياة العملية... أن تحقق نفسها وتختبر معرفتها... تتلمس درجة هذه المعرفة فقد تخرجت لتوها من شهور قليلة تعدها على أصابعها.. حلمت بهذا اليوم طويلا... طويلا... الآن تعايش يومياً رعشة تحقيق الأمل أنغام تبدأ بها نهارها... تساؤلاتها قصيرة ولاهثة تعطى معنى واحداً بذلك الجموح الطاهر لسبر غور الحياة والتواصل مع الآخرين.

تعمل مذيعة تبدو كأنها لا تملك من الدنيا غير آلة التسجيل المعلقة على كتفها باعتزاز، وميكروفون بين يديها... تقف فى بهو أكبر دار للنشر تنتظر لتأخذ حديثاً مع أستاذتها، والتى كانت عميدة لها أيضا لمدة أربع سنوات والآن هى المسئولة عن دار النشر الكبيرة هذه.....

انفتح الباب أذنت لها السكرتيرة بالدخول ففكرت للحظة أن تتخلص من آله التسجيل الموجودة على كتفها لتحتضن أستاذتها ولكن الميكروفون يكبل يديها فكيف ستضمها إلى صدرها...؟ استأذنت السكرتيرة أن تضع الآله لدقائق على مكتبها وخطت بفرح أولى خطواتها داخل المكتب... أرحب ابتسامة على وجهها تنوى أن تطير إليها فلابد أنها ستذكرها.... ووصلت إلى منتصف الحجرة فلم تتحرك أستاذتها من مقعدها..! فأبطأت من خطوها إلى أن وصلت إليها... المكتب حاجز صريح وحاد يحول بينهما. بسرعة مدت ذراعها فتناولت الأستاذة يدها وهى تقول بنبرة محايدة «تفضلى» تسمرت المذيعة فى مكانها وان بقيت يدها متشبثة بكف أستاذتها التى حاولت أن تقوم من مقعدها نصف قيام... فى نفس اللحظة دخلت السكرتيره وفى يدها آلة التسجيل ولم يكن هناك بدٌ من أن يبدأ اللقاء فوراً وقد وضعت الأستاذة على جبهتها الرقم المعروف ١١١ من شدة العبوس!... والمذيعة تلملم أشياءها كانت الأستاذة توصلها إلى الباب وقد أبدت بعض الرضى عن نوعية الأسئلة التى طُرحت.

إذا كانت أستاذتها قد استقبلتها بهذه الطريقة الرسمية المطلقة فلابد أن سكرتيرتها والتى لم تعرفها من قبل لن تطيق أن تسلم عليها؟ فاكتفت بإيماءة من رأسها وهى تنسحب من أمامها وسمعت دق كعب حذائها عاليا مضطربا ولم تنتظر المصعد نزلت الدرج بنفسها كأنها تريد أن تتوارى... خجل حتى أذنيها تغرق فيه وتريد أن تبتعد عنه فى نفس اللحظة.

وجرت السنون تتابع الأستاذة من صفحات الجرائد والمجلات وإن لم تنمح الصورة من مخيلتها عن خشونة مقابلتها التى كانت إلى اليوم الذى عرفت فيه برحيل زوجها فاكتفت بأن أرسلت لها برقية وهى تقرر بينها وبين نفسها من أنه ولابد أن علية القوم الآن يقدمون لها العزاء «فأين أنا كمذيعة مبتدئة من السادة المسئولين والمشاهير والمفكرين» .... بعدها كانت الأيام تأكل بعضها البعض وتحال الأستاذة إلى المعاش ويبدأ تواجدها يتزايد فى مبنى الإذاعة تراها هنا وهناك... حقيقة أنها كانت دائما ترتدى الملابس السوداء ولكن كان شعرها منسقاًقصيرا... قصيرا فى أناقة وثبات... كانت تلمحها هنا وهناك فتحس بفرحة من داخل داخلها شيئ ما يهتز فى أعماقها وكأن الحب شعور له عظمة الحياة واستمراريتها إحساس لا يمكن أن يتوقف أو أن يخفت... الحب تعلم وقد تعلمت كيف تحبها سنوات منذ كانت طالبة لها. وفى يوم فوجئت باقتراب الأستاذة تبادرها السلام!! تشد على يديها!! تسأل عن أحوالها!! لم تصدق أذنيها والأستاذة تقترح عليها موضوعاً يتناقشان فيه برنامجها المتواضع.... الفرحة داهمتها... التوت رجلاها فأسندتها فما كان من المذيعة إلا أن مالت عليها وقبلتها... تحبها والله تحبها... تقرر بينها وبين نفسها أن خروجها إلى المعاش أعطاها فرصة أوسع للاختلاط بالآخرين ومعايشتهم بدلاً من وطأة المناصب وتقاليدها.

وصارت المذيعة شديدة القرب منها تكلمها وتشاورها... تسمع إليها وتستفيد منها... كل يوم تتلمس معها معنى للتشبث بالحياة... والإصرار على مواصلة التواجد فى المحافل... كل يوم يمر عليها مع

أستاذتها تؤمن بإتقاد نور ذهنها الذى لا يخبو... إنها معين لا ينضب من الأفكار.. والقضايا... والذكريات وإن بدا الجسد منها أكثر وهنا... ولما توطدت صداقتهما أكثر بدأت تحكى لها عن عزوف بعض الجرائد والمجلات عن أن تشارك بالكتابة فيها فهى ترسل بمقالاتها ولا ينشرونها وإن نشروا مرة لايدفعون لها أجراً!! حجتهم تفضيل إعطاء الفرحة لفكر جديد! ودم جديد!

وفى إحدى زياراتها فى منزل أستاذتها لاحظت المذيعة أنها تتعمد أن تتشاغل بالنظر إلى أرفف مكتبتها الضخمة ثم تصر أن تبحث عن القلم الأزرق الذى كان بيدها وكأن باقى الاقلام لا تكفى! لتتلفت مرة أخرى باحثة عن ورقة صغيرة ضمن كومة الأوراق الهائلة الموضوعة هناك!! وهكذا... وهكذا إلى أن انفلتت فجأة دمعة واحدة من جنب عينها... الدمعة سالت ببطء تتخطى تجاعيد وجهها لتنزلق على رقبتها وهمست: «إننى أعدو إلى السبعينات من عمرى... واننى أظن بأنى عشت أكثر مما ينبغى»... وفى ليلة أخرى رجتها بنوع هو مزيج من الاستفسار المقصود والتواضع أن تقرأ ماكتبته... وبشجاعة كانت تسألها مستفسرة بتأكيد «هل هناك ما ينبئ عن أى هزة عقلية فى هذا المقال!؟؟.

كرهت المذيعة دنياها... لم تعد تسمع للحياة لحنها المتناغم السابق... الغصة عرفت سبيلها إليها... ضاع منها ذلك المذاق المعجون بالأمان لطعم خروجها إلى الحياة العملية... دمعتها معلقة على سطح مقلتيها والغصة ماتزال متربصة بقلبها ترى الأيام متشابهة

تنسحب من أمامها وذهن الأستاذة خلية لا نهائية متجددة بالأفكار وكأن خبرتها حمل ينوء به عقلها والمعرفة ثقلت عليها فصار العطاء شلالا محال أن يتوقف... لحظات العطاء والإخصاب تلح عليها لتعطى وتعطى وتحيا مهما كان الجزاء!!... إلى أن طلعت صحف يوم معين بخبر يقول إن الاستاذة وقعت فى الحمام... وأن الأستاذة انكسر حوضها... ولابد من تركيب المسامير... و... و... الخ.

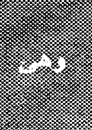
هرعت إليها المذيعة وعلى بابها تمهلت وجلة فها هم علية القوم يزورونها الوزراء والوكلاء الأكاديميون والناشرون... شقت الجمع واقتربت منها بينهما مساحة كف يد واحدة وفوجئت بالأستاذة تمد يدها إليها وقد استعارت لجبهتها الرقم ١١١ من شدة العبوس فقفز إلى ذهنها اللقاء القديم أيام دار النشر ولكنها أمسكت بأصابعها كانت باردة وشاحبة ومع ذلك حرصت الأستاذة على ان تزيحها بشئ من القوة لتحتفظ بالمسافة بينهما كما أرادت ثم قالتها واضحة «أرجو أن تنتظرى قليلاً» إبتعدت الشابة كالملسوعة من أمامها إلى أن انفض الجمع بعد دقائق وكأنهم انتهوا من مهمة ما... إبتعدت أكثر والصور تلتقط للمسئولين حول سريرها... بعدها انصرف كل إلى حاله. كأن الستار أسدل على المشهد المطلوب تماما.

إقتربت ببطء من استاذتها ولدهشتها كانت تفتح لها ذراعيها وعلى صدرها كانت تضع رأسها إختلطت دموعهما... عربد نبضهما حباً وألماً كأن دماء عروقهما واحدة. وكيف حدث هذا؟ ولماذا؟ ومتى؟ سيل من الاستفسارات كانت ترد عليها كلها الأستاذة... إلى أن هدءا وشدت

مقعداً تجلس عليه قبالتها... كل واحدة فيهما تبذل أقصى مالديها لتتحكم فى نفسها... وداهمتهما لحظة صمت قطعته الأستاذة وهى تهمس: «لا يرفضنى الناس فقط ويرفضون ما أكتب... لا يقبلون إصرارى على أن أحيا لأنهم تعاملوا معى على أساس المناصب التى توليتها... من وطأه مسئولياتى لم يكن لى إنتاج يبقى من الكتابات... سرقتنى المناصب الإدارية والضجة الإعلامية فاعتبر الجميع أن دورى انتهى بخروجى إلى المعاش... لم يلمس أحد الجانب الفكرى منى ولهذا لا يقبلون ما أكتب لم يتعودوه» ثم التفتت إلى صديقتها المذيعة وأطبقت بيديها تحتوى كفها وهى تقول: «وفوق هذا شيخوختى إنها دلالة صريحة بالتوجس وتحديد قبول التعامل معى... والآن ياصغيرتى الحياة نفسها ترفضنى... كسرتنى كأنها تقول لى: «عند هذا وتوقفى.. ابق مكانك.. انتظرى.. ألم أقل لك إننى عشت أكثر مما ينبغى!!».

ثم أغمضت عينيها فى هدوء وسقط الوعى على المذيعة بأنها لن تفضى إليها مرة أخرى مطلقاً.

العطاء والحب !!



تمرق كالطيف من دارها استدارت عائدة ووضعت إصبعها على جهاز التسجيل ثم سحبته كالملسوعة فقد كان منطفئا!! وتساءلت من أين تسمع هذه الموسيقى؟... تلفتت باهتمام حواليها لتدرك أن العزف يأتى من داخلها... يملأ روحها... فغسلت الفرحة تقاطيع وجهها إلا أنها مازالت تبحث عن مصدر الموسيقى وعلى مهل مرة أخرى كانت تدرك أنها تتخلق من داخلها... لفت ذراعيها حول صدرها كأنها تحتضن نفسها لتحتفظ بهذا النغم داخلها ومشت فى هدوء إلى عتبة باب بيتها. صدر نيلها الأسمر يدرك ما تسمعه فتترقرق صفحته لمداعبات الشمس الحارة الأشجار تنتفض على صوت الدقات التى داخلها والتى مازالت تصاحبها... خطواتها كطفل يجرى ليحتضن ساقىْ والده... دقات خطواتها خفيفة وإيقاعها ينساب مع ما بداخلها... انسلت تركب

عربتها... محركها العتيق العالى لا يطغى على ما تسمعه وسقطت فى أعماقها عبارة توحدها مع الطبيعة بكل ماصاحبها من تفسيرات من معقولية حدوثها أولاً؟ ثم من زمن حدوثها فى عصرنا؟ أم استحالة ذلك؟ وأجابت عن تساؤلها بأن إنسان عصرها هو وحده القادر على أن يخلق ذلك الإحساس بالتوحد مع الطبيعة... تعلو الموسيقى حولها محيطة بكيانها الرشيق وقبل أن تتساءل عن إمكانية التوحد مع الأشخاص التى تحيا معهم فى كل دقيقة من حياتها إذ وجدت نفسها بكل قوتها تضع قدمها على كابح العربة لتتوقف تماما. لم تكن تدرى متى قررت الوقوف وفى عقلها كل هذه التساؤلات ولكنها لمحت كياناً عجوزاً يحاول بصعوبة أن يلقى بنفسه داخل عربة أجرة والسائق حلا له أن ينتظرها فى وسط الطريق!! ورجل آخر ينحنى ليكلم السائق وفى نفس الوقت يستند بصدره وذراعه على الباب الذى تحاول العجوز الدخول منه! كان جسدها لايهاودها فقد مرونته مع سنوات عمرها المديد. وتعى بقسوة وهى على جلستها داخل العربة أن السائق والرجل كلاهما عطاؤه ناقص... أبواق العربات تعلو خلفها مزمجرة... والمرأة لا ليونة لجسدها تساعدها على الدخول إلى العربة من تلك الفتحة الصغيرة التى سمح بها استناد الرجل الضاحك وهو يكلم السائق ومازال الاثنان يتضاحكان... يتضاحكان. كان محرك عربتها قد توقف تماماً فنزلت فى لمح البصر تعبر الطريق تسأل الرجل أن يحسن فتح باب العربة الأجره ثم عادت مسرعة ونظرات الاستنكار تحاصرها من عيون أصحاب العربات الكثيرة المنتظرة خلفها... الأبواق بكل أصواتها تزعق

كأنها ترميها بأقسى المعانى... وهى تدير محرك عربيتها مرة أخرى لتفسح الطريق لمن وراءها تعاود الموسيقى عزفها السابق بسمفونية حميمة تحكى قصة موغلة فى القدم قصة ذلك الإنسان الذى خلق ورغما عنه يحوى بين ضلوعه عنصراً يناقض عنصراً آخر... رغبات وآمال تعارض بعضها البعض! إنه الإنسان بكل ذراة الانسانية الطيبة وبكل منحدراته المنكفئة على تراب الأرض البعيدة... تعلو الموسيقى وتنسكب داخلها أمنية كبيرة فى أن ينتصر عطاء الإنسان بالحب لأنه الإنسان الذى جبل على هذا فهو سيظل يعطى ويعطى بحركه وجود العجوز مثلا فيقف وسط الطريق ليوصلها وهو يعى أنها ربما لا تعرف العنوان الذى تقصده... سيتعب معها كثيراً... سيجوب بها الشوارع والطرقات إلى أن تتذكر مقصدها الحقيقى ولكنه مع ذلك توقف وانتظرها... تعلو الموسيقى داخلها وتعرف ان السمفونية فى أوج صعودها وقبل أن تتوقف تماما تردد بكل مشاعرها «آه لو انتحى السائق بعربته قرب الرصيف ولو أحْسَنَ الرجل فتح الباب للعجوز.

لست أدرى مـا الذى جـعلنى أدير مـحـرك عـربتى بعـد أن وصلت بيـتى وأتجـه إلى صـديقـتى «ليلى» رغم أن ابنتى كـانت فى فترة أداء امتحـانهـا للسنة الأولى الثانوية وعند بيـتهـا كنت أُصلب يدى بلا توقف على الجرس... صـوت الجرس أصدق مـا يكون لزقزقة عصفور يتيم!! هذا ما كـان يجلبه عقلى لأفهم أن صوت زقزقة عصفور جرس صديقتى يتيم لا محالة إلا إذا استبدلته بآخر... وفى مرة أهديتها جرساً يدق عزفاً من «بيانو» وفى اليوم الأول الذى علقناه سوياً كاد أن يحرق البيت!!

أقل من نصف دقيقة وانفتح الباب... لدهشتى كانت «ليلى» تجلس وسط سـريرها وفى لمح البـرق لاحظت أن عـينيـهـا دامـعـتـان حـتى الاحمرار والخادمة التى تأتيها باليومية تشاور وتلوح بيديها كأنها تريد أن تفـهمنى أو تشرح لى شيـئا يصعب عليـهـا وذلك لأنهـا خرسـاء لا

تنطق!! وأنا أتفرس فى وجهها أحاول أن أفهم رأيت يد صديقتى تنسحب من على زجاجة بجوارها... لم تكن زجاجة ماء فدوماً أذهب إليها وولاعتى فارغة فتقول مبتسمة بثقة «سأملؤها لك من هذه الزجاجة زورونا ستجدوا ما يسركم» ونتابع الضحك سوياً... هذه المرة كان صندوق الثقاب فى يدها الثانية تقبض عليه بقوة واحتارت كيف تسلم علىّ؟ ولكنها اقتربت بوجهها ناحيتى فقبلتها وأنا أسحب بخفة علبة الثقاب وأزيح زجاجة البنزين... أيقنت أننى لن أتركها... سنجهز سوياً طبقا من «الرقاق» الذى تجيد صنعه وسنوصله سوياً أيضا لابنتى لابد أنها عادت متوترة تترصدنى بالباب لتقول لى الحمد لله... الحمد لله الامتحان كان سهلا ياأمى»... إما أن تبيت عندى أو أبيت عندها ولكنى لن أتركها فقد كان الموقف لا يحتاج إلى ذكاء خارق لأعرف ما كانت صديقتى تنوى فعله.

وبقى على أن أواجهها ولكن متى وأين تماما؟... فى طريق عودتنا بعد أن تركنا ابنتى توقفت بها أمام أحد الأماكن على كورنيش النيل وقلت «إنى عطشى وأحب الچيلاتى» فهاودتنى بعد لحظة تردد وقبل أن نختار مائدة لنا كنت أطلب الچيلاتى بإلحاح وقدمه لنا العامل مبتسما ولعله يقول فى سريرته «امرأتان مكتملتان وتعشقان الچيلاتى عشق الأطفال!!» وبادرتها:

– ليلى... لن أرضى لنفسى بالتظاهر بالغباء طيلة ستة أشهر متواصلة فى البداية قلت لنفسى مادمت تكتمين حيرتك عنى فليس لى أن أقتحمك أو أن أستنطقك... واليوم أراك بعين رأسى تنوين التخلص

من حياتك! فأى ألم وأى كدر يدفعك إلى هذا؟ وأين موقع صداقتنا منذ صبانا؟؟ مشت بك سفينتك ما آن لها أن تمشى وتخبطت سفينتى حتى الحطام... ولكنها فترات مرت وها أنا ذا أبدأ من جديد كعادتى... بحق صداقتنا وذلك الحب الذى بيننا أن تشاورينى... فقط مشاورة.

رفعت رأسها وهى تحاول أن تلملم من شعرها شديد السواد ولما أزاحته تأكدت أن الفجر على وشك الشروق علينا... كانت كلماتها حالمة قليلة كسليقتها فقالت بما يشبه الهمس.

– بل أين أنت لم تسألينى من زمن طويل!؟... أنا لم أشأ أن أزعجك بحكايتى وأنت مزدحمة الوقت دوما.. و.. و

– وهل نسيت أننى أختك البديلة عن تلك التى كنت تأنسين لها وفقدناها جميعاً... هى رحلت شهيدة حادثة طائرة... وأنت تريدين لنا تكرار نفس المصير؟؟

طيف ابتسامة لاح ولكنها استجمعت شتات نفسها ثم قالت:

– أنا لن أحكى لك شيئا الآن... ولكنى فقط أريد من وقتك ساعة أو بضع ساعة حتى تتعرفى على الإنسان الذى عشقته... والرجل المزروع فى وريدى... إنه الأمل والمنتهى ولكنه لا يصدقنى وكان الخطأ خطئى... بمعنى أن بدايتنا كانت خطأ وقد اخترتها بنفسى... لم أكن أعرف أننى سأعشقه لم أكن أحسب أن قدراً لا يستهان به من ذاته سيسكن أضلعى.

– إذا كانت البداية هكذا كما تقولين فلماذا لم تحاولى التراجع عن علاقة لها هذه البداية؟؟

خطفت نهاية العبارة من على طرف لسانى لتقول:

– بدايتى معه حاولت فيها أن أتعايش مع حياة ليست لى ولم أعرفها فى واقعى فتصدعت وأنا ألبس جلد المحترفة اللعوب وسقطت فى الامتحان من أول كشف الهيئة وكان على لجنة الاختيار أن تلفظنى ولكن الغريب أنه تمسك بى وألح وقرر إعادة امتحانى مهما فشلت!... وكان له ما أراد. لفنا الصمت والشمس ودعتنا من بضع ساعه. وحيدتان على شاطئ مجهول رماله مسحورة تنسحب من تحت قدمينا... هل أفقدها دون أن أدرى... أأتركها تسرقها منى الرمال؟

فى طريق عودتنا... قررت ان بيت عندها... فى الصباح ولم تكن الساعة قد تعدت التاسعة وهى تدير القرص تطلبه لأتعرف على حكايتها بدون غياب أحد الأطراف... ضجراً على الطرف الآخر سمعته:

– داه تليفون شغل... شغل ياهانم.

– هل أغضبتك فى شئ؟

– لا تطلبينى... أنا فقط الذى أطلبك حين تسنح الظروف وانغلق الطريق بينهما... صوته مازال يدق فى عقلى عالياً مسموعاً ونبراته باترة... لا يمكن لأى إنسان أن يسترسل معه فى حديث لايريده فأغلقت صديقتى الهاتف بتأدب شديد... دمعة واحدة من عين واحدة انسالت منها مارأيت فى حياتى امرأة تبكى بعين واحدة تتدحرج دمعتها إلى رقبتها تدفعها دمعة تالية ليصل خط الماء إلى ما بين

نهديها... هناك كانت البركة راكدة وسخونتها لاذعة وأنا أتناول ورقة من حقيبتى لأجفف بها من فتحة ثوبها هذا الماء المشتعل.

«إنه لا يحبنى» كلمة حوت كل ما تشعر به من مرارة ثم كانت كأنها تشد الكلمات مخضبة بدماء قلبها وصوتها علق به قدر كبير من اليأس والامتثال وهى تضيف «فقط قبل أن يأتينى يعرفنى قبل وصوله بدقائق لأجده أمامى فجأة وكلما حاولت أن اختبئ فى صدره لأشعر بأى احساس بالأمان يردنى بإصرار... لم أكن أنا بل كان نبض قلبى وذلك الوجع السحيق من شعورى بالوحدة ولكنه كان ينظر إلى بجرأة بملء عينيه ويقول «لا... لا أحبك هكذا» فأخجل من نفسى ومن فعلتى الطموحة لأطأطئ من رأسى وهو يحاول أن يرفعها لتتقابل شفتانا فى لحظة هو أرادها فقط حينما يحتاجنى ينبئنى بأحلى نبأ بأنه سيكون معى خلال ربع ساعة أو يزيد عنها قليلاً... وأنا أجتر حبى له دقة قلب بدقة قلب... خبطة نبض بخبطة نبض» وفجأة ضحكت بشدة هزتنى من رأسى إلى أطرافى وهى تقول: «ياصديقتى ليس جرس بيتى هو اليتيم فقط ولكن صاحبه الدار تتعايش ويتمها دوماً مع هذا الرجل».

... ...

مضى أكثر من أسبوع ترجوه أن يقبل أن نلتقى ثلاثتنا فى أى وقت يختاره بحجة ما... ولقد اختار أن يقبل عرضها بعد أن أراقت له ماء وجهها حتى الغضب... بعدها لم يكن أمامه لمصالحتها إلا أن يوافق أن يرانا... لا أذكر اسم المطعم ولكنه من الأماكن شديدة الاناقة والتى تتراوح مساحتها أكثر من خمسين مترا فى أحد الأحياء الهادئة...

للوهلة الأولى بدى متوتراً... ولكن بشئ من التأمل شعرت أن هذا التوتر ليس وافداً عليه إنه توتر الأذكياء بتلك الانتفاضة الجسدية التى تحسها بقليل من التركيز... عيونه مبرقة شديدة اليقظة تشعرك أنها تنم عن رأس يحوى الكثير... كان قاطعاً ومحدداً فى رأيه بأن نغير المكان فوراً فالموسيقى تثقل على أعصابه ولا يمكن معها أن نقيم حديثا مسموعا فيما بيننا وكان له تعليق فى الصميم حين التفت إلى وهو يقول: «هذه الموسيقى تذكرنى بالأفراح التى أدعى اليها» فتساءلت ليلى بعفوية «ربما سيتزوج أحد الليلة» كان قد نفد صبره فانتفض واقفا يترك جمله المطلوب فوق طبق صغير...

إستقر بنا الأمر فى مكان اختاره... العازف الوحيد يداعب أوتاره فيما يشبه الصمت... وتيقنت فجأة أنه السياسى المعروف صورته مطبوعة على جرائدنا اليومية... أخباره تتناقلها النشرات... «ليلى» لم تقل لى إنه هذه الشخصية... ذاب إحساسها به حتى لم تعد ترى من هووان أحبته بعينه...

أما هو فلم يكن لهوفاً بالمعنى المتعارف عليه وكذلك لم يكن قاسياً... كان شحيحاً فى إعطائها الشعور بالأمان حتى يقينها بأن صدره هو ملاذها مهما طال انتظارها له لم يكن يمنحها هذا الحلم بأى قدر... صامت صمت الحجارة... وهى تعبت من كثرة ما الحت... كثرة ما ارتضت بأقل القليل من وقته ونفسه... ثم انتبهت على حقيقة عبرت بعقلى فالمكان ظل خاليا إلا من ثلاثتنا!! أيضا تذكرت أنه كانت هناك عربة تترصدنا شاهدتها تقتفى أثرنا وتلك النظرات المتبادلة بين

العاملين فى المطعم... وعند لحظة معينة أصر فجأة على أن نغادر المكان! لم يفكر أن يستأذننا ولكن القرار كان قراره... علاقتنا به لها مذاق الترويض الأكيد... ومع ذلك وأنا قابعة فى المقعد الخلفى أثناء عودتنا كانت «ليلى» فى أوج فرحتها... قلبها تتسارع دقاته فتهتز ملابسها من فوق أكتافها... الابتسامة والغمغمة بنطق اسمه لم يتوقفا لثانية واحدة... تتمايل كعود الياسمين الوحيد أقرب ما تكون منه ولكننى أفقت عليه ينهرها: «إحنا فى الشارع... إنت غير واعيه ولا إيه؟» صوته مزيج من الحدة المعجونة بالسخرية... كلماته القليلة كأنها حجر يلقيه عامداً عليها... عينى مازالت مصلوبة على وجهه فى مرآة العربة الأمامية... شعره غزير والأبيض لم يجسر أن يظهر بين شعره الداكن... صورته المنطبعة أمامى تؤكد الإرادة وحدة اليقظة حتى من أسلوب قيادته... وفجأة سقطت على الحقيقة المعروفة للجميع... إن هذا الرجل مرشح لتولى منصب هام فى التعديل الوزارى المرتقب... إنه «زاهر السويفى» كيف غاب عنى ذلك... زوجته شقيقة زميلتى فى معمل التحاليل الذى أعمل به وهى غائبة فى «باريس» ومعها أختها بأحد أفراد عائلتها حيث يرقد هناك فى محاولة مأمولة لشفائه... طبعاً لم يقل لها بأن زوجته غائبة حتى لا تطمع فى مزيد من وقته... أو تطمح فى قليل من الرفق بها... ها... ها... يالبلاهة صديقتى!!!

فى الصباح هرولت إلى ابنتى. من طريقة جلستها وتقوس ظهرها انبأتنى بأنها قلقة... وأنها متعبة وأن رأسها الصغير مكانه صدرى لأملس عليه بكل الحب... لم تجد من يعد لها الإفطار... يالحبيبتى... أقسى حب حب الأبناء... كبدى وقلبى ينبضان منفصلين عنى وعلى

مقربة مني... ياحبيبتي هل أغضبك غيابي؟ وكان يكفيها أن أحتويها... أن أغرسها بين ضلوعي وهي تموء كقطة مبتلة إلى أن تدفأ وتسري الدماء في عروقها... تحمر وجنتاها فتقبلني وتقول: «الحمد لله الامتحان كان سهلاً جداً ياأمي».

بقي «لليلى» أقل من ساعة وتأتي لموعدنا المتفق عليه... ستستمع إليّ كما اتفقنا... كنت مازلت مع ابنتي... أرفع يديها المنمقتين وعلى أصابعها أحكي لها حكاية «اللي وجد البيضة وسلقها وقشرها ورش عليها الملح وأكلها هم... هم... هم» وهي تكركع بالضحك وتقول: «لقد كبرت على هذه الحكاية» فتنقلب أمام عيني كما كان لها عام واحد من العمر وأنا أصل بأصابعي تحت إبطها أناوشها وأفرح لسماع ضحكاتها... عاد الاحمر المرئي إلى وجنتيها فهمست لها: «طنط ليلى كانت في حاجة إلى ياغاليتي» فتساءلت بعفوية «أليس لطنط ليلى ابنة مثلي ياأمي» وقبل أن أجيبها إذ وجدت «ليلى» واقفة بيننا في الحجرة... اقتربت منا أخذت مكاني وهي تحتضن ابنتي بين ذراعيها... استكانت الصغيرة أولا ثم رفعت رأسها وسألتها باستفسار صادق:

– أليس لحضرتك ابنة ياطنط ليلى... أريد أن أراها؟

– عندي ياحبيبتي واسمها «تغريد» بعد أن تنتهي من امتحانك سنسافر ثلاثتنا إليها وعلى والدتك إقناع جدتها أن تعطيها لي.

وانسللنا من حجرتها تركناها لدروسها وذهبنا نعد لها إفطاراً شهياً وفي المطبخ لم نتكلم كأن هناك شيئا اقتحم صديقتي واستحوذ على كيانها... أصرت أن تقدم لها صينية الإفطار بيديها... تهدهدها وتقسم

عليها أن تبتلع أكثر سرعة فسحبت الباب خلفى بتلطف وانتظرتها... تلاقت أعيننا وفهمت الكثير... الأمل بأنها ستستعيد ابنتها أشاع لمسة سكينة فى روحها ظهرت على وجهها وجلست بجوارى على الأريكة وبهدوء كانت تقول لى: «فى استعادة «تغريد» استعادة لنفسى وكيانى الضائع... لقد وضح كل شىء فالطريق بينى وبين «زاهر» مسدود ويكفينى ضىّ طريق الأمومة... إنه خلاب ياحبيبتى يابنتى... لقد أوحشتنى «تغريد».

هناك شئ حدث

لم تع بدقة متى قررت أن تسقط «طارق» من حياتها! وجاء قرارها بذلك مفاجأة لكل من يعرفها فاختلطت المعانى والألوان وانقلب الأبيض إلى أسود فى برهة من عمر الزمان!! وكبلها الإحساس بأن هناك مساحة مفرودة أمامها فى عقل رأسها بينها وبين «طارق» هناك... هناك فى البعيد يقف عند الأفق ومهما كان ماداً لها ذراعيه يحاول أن يطولها لتلقى برأسها على كتفه أو تدس أنفها البارد فى لحم صدره كما كانت عادتها فى ذلك إلا أنها الآن لا تحس بمحاولاته! لأنه بعيد... وهذا البعد ضيع ملامح وجهه فلم تعد تتبينها...!! أين هى من أمسها القريب من ذلك التفتح الحثيث نحوه ليس كطفل تلهو معه فقط ولكن من ترسم معه لحياتهما فى الغد... ومابعد الغد... من اكتشفت معه أول شعورها بأنوثتها وأمومتها.

أما «طارق» فلم يستسلم لضياع صوته فى ذلك الفراغ المصطنع الذى يطبق عليه، فلم يكن يفصله عنها إلا بضع خطوات معدودة مسافة عرض الشارع الضيق بين بيتيهما وإذا كان يعشق الهاتف بينهما فلأنه وسيلة لو شوشتها بدلاً من أن يسمعه الجيران عبر النافذتين كما كانا يفعلان وهما أصغر عمراً اليوم يناديها... يسمعها صوته آلو... آلو... فتسد الطريق بينهما دون أن يبدو عليها أى شئ!! ولا حتى الدهشة!! وأكثر من ذلك ألغت النافذة التى بينهما!؟ وهو يبحث ويراجع فى عقله فلا يعثر على سبب واحد لما أصبحت فيه! ثم يكرر محاولة البحث ومراجعة نفسه فلا يعثر إلا على مزيد من الصور لهما وهما يلعبان بطفولتهما سويا... أيامها كانا يتركان أكوام العربات والعرائس الصغيرة التى أنجباها وأسمياها سويا... يتركان كل الأشياء والألعاب ملقاة هنا وهناك حين تنفلت من يدها الضفدع التى تحبها فتجرى خلفها إلى أن تلتقطها من الحديقة الموجودة فى آخر الشارع قرب مدرستها وقد أخذ التعب منهما الكثير... وقد تقع على أسفلت الطريق ويبرق الدم من ركبتها فيندفع يحضر لها المطهر ليضمدها... وفى يوم قررا أن يسقطا الضفدعة نفسها فى المحلول المطهر الأحمر!! وبذلك لا يفقدونها مهما بعدت قفزاً إلى حدائق البيوت المجاورة لأن لونها الأحمر سيجعلهما يتعرفان عليها... ثم كان الخلاف بينهما مرة أخرى على طريقة تمييزها. هل يسقطانها فعلا فى المحلول الأحمر؟ أم يلصقان ورقة على ظهرها باسميهما!!!؟

وكبر تحت أعين ورعاية الجيران حبهما وإن لم يكن يقدرانه بمفهومه الكامل إلا أنهما لم يستطيعا أن يوقفا تيار وعى الجيران بذلك التوقع

المشبوب بأنهما يكبران... سيتشابكان... سيصبحان واحدا صحيحا... سيتملكان طفلا له الجمال كله... لأنه ابن الحب الأول... ابن الصدق فكان موقف «منى» له قسوة جزّ السكين وبرودته. حاولوا أن يثنوها... يعقلوها... لكن كان هناك دائما حد معين تستمع لهم فيه حتى إذا أدركت أن الحديث يمس علاقتها «بطارق» تحولت إلى شئ أصم كأنها تمثال فلا يمكن أن تستجيب ولا حتى أن يطرف لها جفن دليل الحزن أو التفكير أو حتى التقدير لعبور بعض الذكريات عنهما سوياً!! وقالوا غرها جمالها فاستكثرت نفسها عليه... إنها تتدلل ولابد أنها راجعة إليه... وكانت أمها أيضاً تشتهي عودتهما... ولكن تمر الأيام بهما سريعة تعدو أو بطيئة تجرجر معها معاني اللاوفاء والغدر... و«طارق» نبت الشوك المر ومذاق الصبار يلهج به لسانه وهو يردد لنفسه وللآخرين: «لم أخطئ فى حقها بكلمة لم أقصر فى إحساسى بها لم... ولم... ولم». يتذكر بداية موقفها يوم أن عاد متكدراً يعلن لها بأنه لم ينجح فى امتحان كشف الهيئة لكلية الطيران وكان آخر اختبار له بعد أن اجتاز جميع إختبارات الذكاء والمعلومات العامة واللياقة البدنية... فقط هيئته لم تعجبهم فأسقطوه!! بعشم الدنيا ألقى عندها بالحقيقة مهما كانت مخيبة فمن غيرها يستطيع أن يفضى إليه بما فى نفسه الجريحة فكانت النتيجة أنها أدارت له ظهرها وأسقطته بدورها بهيئته كاملة مخبراً ومظهراً من حياتها!! اجتثته حتى الجذور فترنح أمامها ألماً على ألمه فلم يزيدها موقفه هذا إلا تصميماً على اقتلاعه!!

وصارت من بعده تمارس حياتها بطريقة عادية جداً فى الصباح تذهب إلى مدرستها مصففة شعرها بإتقان بعد أن تخلصت من

الضفيرتين الشهيرتين منذ بدء دراستها الثانوية... شديدة الأدب مع زميلاتها... شديدة التقدير لمدرساتها... كانت المثال فى نظر الجميع وكان هو شهريار هذا الزمان... حبهما أسطورة... أحلى أسطورة يمكن أن يتناقلها أهل الحىّ فى أمسياتهم الممتدة..

شئ واحد فات الجميع... فات حتى والدتها أن تلحظه قبل أن تسقط مغشياً عليها حين فاجأتها أول أزمة قلبية بسبب سمنتها المفرطة لحظتها وهو يفضى إليها بكل ما فى نفسه عن فشله فى امتحان كشف الهيئة جحظت عيناها لثوان وتحجرت مقلتاها ثم انسكب العرق سيالاً من كل جسدها كأن مسامها تبكى هذه النتيجة... ولمع العرق واضحاً على جبهتها... كانت تنوى أن تحتضن رأسه إلى صدرها تعاطفاً معه ومع نفسها كأنها تتلمس أعماقه لعلها تستطيع أن تمنحه بعضاً من الأمان الذى يأتى من عمق مشاركة الطرف الآخر... ولكن أمها سقطت فى تلك اللحظة بالذات مغشيا عليها... لم يكن سقوطها بالطبع لفشله فى امتحان كشف الهيئة إنما تكاتفت الأقدار على أن تأتى سقطة أمها بعد أن باح لها طارق بنتيجته فوأدت سقطة أمها انفعالاتها وجزعها عليه من أن يخرج فى شكل تعاطف ماكدموعها أو لمساتها له ليتحتم عليها فى نفس اللحظة أن تنتبه فوراً وبلا توان إلى ما يجب عمله لإنقاذ أمها وانطمس بذلك طوفان لهفتها وكل مشاعر اللحظة تجاه طارق... وفى نفس الوقت لم تنتبه إلى أن ما مرت به أيقظ فى أعماقها فى أبعد نقطة من دخيلة مشاعرها حادثة بعينها عايشتها قبل عشر سنوات حين كان لها من العمر ثمانى سنوات فقط... فى تلك المرحلة كانوا يعلمونها فى مدرستها العناية بتربية الطيور وطلبت منها مدرستها أن تحضر «كتكوتا»

صغيراً لتقوم بنفسها بتربيته إلى أن يصير دجاجة... وتمر الأيام وهى تعتنى به... يجتمع حولها باقى التلميذات يشاركن فى إطعامه... وفى يوم بعد عودتها به لاحظت والدتها أن الطائر يرتجف ولا تستطيع رجلاه حمله... فما كان منها إلا أن حملته وأدفأته وأسقطت بعض العقاقير داخل منقاره الصغير مستخدمة «قطارة» قصيرة وإمعاناً فى تدفئته وضعته فوق غطاء «اللمبة» الدافئ التى كانت مشتعلة فوق المائدة التى تراجع «منى» عليها دروسها... وعلى الفور إمتص الكتكوت الدفء وبدأ يفرد من جناحيه الصغيرين ويتمطى وكأنه صحا من نوم عميق فوضعت له «منى» قطعا صغيرة من لبابة رغيف كان منسياً فى قاع حقيبتها المدرسية فالتقطه... كانت فرحتها أقوى من أن تكبحها فظلت تجرى وتلف حوله ثم تقف على ساق واحدةوتدور قافزة هنا وهناك لتراه وهو يلتقط الخبز من جميع الاتجاهات. أما والدتها فكانت ترقبها أيضاً فرحة معها.. لقد استطاعت أن تنقذ حياته ليصبح يوما دجاجة. وفجأة ابتعدت «منى» تحضر العلبة «الكرتون» التى تضعه فيها وهى ذاهبة به كل صباح إلى مدرستها ولم تعثر على غطاء نفس العلبة ذى الثقوب الكثيرة والذى تغطيه به وفجأة قررت أن تضع العلبة وفيها الكتكوت على بسطة النافذة وتلفتت تبحث عن الغطاء... وأسرع من صاعقة انقضت حدأة من شجرة الكافور الموجودة أمامهم واختطفت الكتكوت من علبته.. استدارت «منى» لتوقن أن الحدأة ترتفع فى الفضاء ممسكة بالكتكوت بين مخالب رجليها... فتحت فاها تنوى أن تصرخ مستنجدة بوالدتها ولكن الباب دق بقوة... كان لدقات الباب وقع القدر وجرت أمها تغلق النافذة وهى تصرخ فيها بحدة «اسكتى..

تصرخ فيها بحدة «اسكتى.. اسكتى.. الباب..»وكانا على موعد مع القدر فعلا فقد جاء أبوها محمولاً من مكتبه... كان مغطى الوجه والرؤوس مطأطئة... وعرفت فى ثوان كل شئ... وصلها الإحساس بالفقد... حريق الإحساس برحيله وصلها وكان عليها فى نفس اللحظة أن تنسى ذلك الكتكوت مهما أحبته... هذه الحادثة القديمة طفت إلى شعورها و«طارق» يكلمها فحين سقط فى امتحان كشف الهيئة داهمها الألم مثلما داهمها عندما اختطفت الحدأة الكتكوت إلا أن سقوط والدتها صريعة الأزمة القلبية أوقف هذا التيار العاتى مثلما حدث يوم سقوط والدها ليصحو تيار شعورى أقوى منه وهو الخوف من فقد والدتها فوأدت الجزع من أجل طارق مهما أحبته فى مقابل لهفتها على أمها خوفاً ولهذا كان العرق يبللها وهى تعيش نفس الحدث وإن اختلفت الشخوص. وحتى بعد أن شفيت والدتها لم تستطع أن تعود بنفسها إلى إشراقتها الأولى شيئ ما أوقف تدفق عواطفها بالحزن أو الفرح.

وعرف أهل الحى والجيران فتاة غاية فى الجمال عاشت حياتها وحيدة فلا هى ارتبطت بمن أحبت ولا بغيره حتى بعد أن انتقل «طارق» إلى حىّ آخر وربما إلى بلدة أخرى.

شيء ما في هذا الوقت أيقظني! إلا أنني أبقيت عيني مغمضة وبأصابعي تحسست ساعتي ولما حدقت فيها لم أر شيئا... كان السواد هو الإحساس المرئي في ذلك الوقت!! فتلفت بلهفة إلى النافذة التي دوما أترك شيشها مفتوحاً فواجهتني أيضاً ظلمة أكيدة وقمت قاعدة أزيح الغطاء الخفيف فرغم أن الوقت في عز الشتاء إلا أنني لا أحتمل الملابس الثقيلة أو الأغطية الكثيرة... أملك مدفأة خاصة جداً داخلي... وعرفت الوقت... قليل من الماء على وجهي وأتخلص من بقايا ترددي في العودة للنوم... تناولت كوب ماء على الريق... يجلب الصحة... وحدقت في مرآة الحمام... آه ياوجعي العيوب ظاهرة تعلن عن نفسها... بنظرة واحدة عرفت كل نقاط الضعف... هنا يلزم أن أتمم رسماً للحاجب... وهناك يحتاج قليل من

الحمرة... أما الشفتان فلا أدرى لماذا أنام وأنا أضمهما بقوة رغم أننى استخدم القلم الأحمر لتغليظهما؟

وخطوت أنظر مرة أخرى من خلف زجاج نافذتى... الرؤية أوضح الآن ولكن دنيا حينا مازالت ساهمة... وضيق إستياحنى فماذا أفعل فى هذا الوقت الباكر جداً... أنزل إلى الطريق... سيتعجب منى من يغسلون العربات فى هذه الساعة... أشم أنظف هواء سأمرض حتماً فجسمى ساخن... لماذا صحوت فى هذه الساعة قبل الفجر وكأنى منتظرة لشئ ما... شئ محال... لن يأتى... ببساطة لأنى لا أعرفه... ولكنى بالتأكيد منتظرة لشئ... عدت لمرآة الحمام... لا يمكن أن أمس المساحيق قبل أن أصلى الفجر... استعجل سماعى للأذان... ولما سمعته صليت... بعد ان انتهيت تساءلت هل دعوت أن يزيح ربى هذا القلق الذى يتلبسنى بجسارة من أول اليوم.

أسمع خربشات على الباب... إنه بائع الجرائد يزيح لى أكثر من جريدة... لا إرادياً جريت لأفتح الباب وتسلمتها منه بعد أن انحنى يلتقطها من الأرض... ودعنى بابتسامة مدهوشة ودعته بعبارة شكر... شابٌ يركب الموتسيكل خلف أبيه الذى كان ينتظره فى الطريق... ماتت أمه منذ أقل من عشرة أيام... لم يتوقف مجئ الجرائد ساعة واحدة... قبل أن أتصفحها أردت أن أتأكد من أننا فى اليوم العاشر من الشهر... لكن الجريدة تقول بأنه اليوم الثالث عشر!! لايهم سأبدأ بقراءة الأخبار القصيرة التى أحبها ولكنى سمعت صوت ارتطام زجاجة اللبن ببلاط الأرضية فى الخارج ولا إرادياً مرة أخرى كنت أفتح الباب

فانحنى اللبان يناولنى إياها والتساؤل يطل من عينيه... قبل أن أرد عليه تذكرت أنه عريس جديد تزوج على أم أولاده منذ شهر واحد!! الخاتم الذهب محشور فى إصبعه الغليظة والشال الزاهى حول رقبته. فى عينيه بريق كأسنانه الذهبية التى تطل من فمه، لبن الزجاجة «مبستر» يعنى أستطيع أن أشربه دون مشقة الغليان فدائما أشعل النار تحته ثم أنساه إلى أن يفور ويجف وأشم رائحته تملأ البيت فيدفعنى الضيق أن أجرى لأطفئ النار ثم أحمل هم ماذا سأقول «لأم صباح» التى تساعدنى... أتمنى أن أتذكر اللبن الذى على النار ولو مرة واحدة لأحفظ ماء وجهى أمامها... وتراجعت عن فكرة شرب اللبن فمن غير المستحب أن يؤخذ بعد الأربعين دون أن يخفف بالشاى أو القهوة... الكبد لن يتحمله... وانتفضت على وقفتى فهل هناك من يريد اقتحام باب بيتى!؟ صوت خبطات أكيدة! فجريت قرب الباب وأنا أستجير من؟ من؟ وعيت أنه جامع القمامة ففتحت الباب وأنا أعاتبه:

– فزعتنى يأبو زكى وأنت تأخذ ما فى الصفيحة!

– معلش مستعجل ياست. تركت الجماعة نيام وأريد أن أعود بسرعة لأفطر معهم ها... ها... ها.

أُسقط فى يدى فهو عريس أيضاً ويحرص بالطبع أن يتناول إفطاره معها... رباه ما الذى أيقظنى هذا اليوم قبل الفجر... كل شئ مستفز لى... دقات قلبى تدفع الدم مضطرباً إلى جسدى والأنفاس تتخطف منى. لابد أننى أحتاج فنجان قهوتى الداكنة... وتساءلت كيف أبدأ يومى فوق هذا بطعم المرارة هذه!

جلبة عشتها لدقائق من فتح الباب وغلق الباب والضيق مازال موجات تترى فى إثر بعضها لتتخبط فى قلبى وتضغط على روحى فلا أجد منها فكاكا هل أفتح الراديو لأسمع تمارين الصباح... دعوات مابعد الفجر والوعد بجنة الآخرة عوضاً عن النار الحالية... وإلا ماذا أريد أو ماذا انتظر؟ ولما لم أجد جوابا أدرت شريطا أحبه مازلت أحب سماعه حتى بعد كل هذه السنين وتمهلت عند كلمة السنين وتناوبت الصور فى مخيلتى من عشرين سنة... سنة بسنة... بل ساعة بساعة... الثوب الوردى وعينه علىّ... الصور تزيح بعضها البعض وتبرز صور الآخرين وأنا زهرة الكل يحلم باقتنائها... وتحول الضيق الذى بداخلى إلى شعور بخوف عظيم فالذى أنتظره والذى لا يجيىء يواجهنى يسكن أعماقى يتغلغل مارداً داخل روحى فتعرفت على ما أنتظره وفهمت لماذا صحوت قبل الفجر اليوم بالذات... إنى أواجه نفسى بصراحة... إنى لا استتر بشئ... لقد كان احتكاكى اليوم بكل من اقترب من بيتى هو الذى فجر ينبوعاً لا يجف من الإحساس الأكيد بالقهر... وهذا القهر بعينه واقع لن يرفع عنى! ببساطة لأنى امرأة... امرأة يذبل ويذوى شكلها الخارجى وتبقى داخلى الأحاسيس كاملة بل هى انضج وأكثر تجسيداً من زمن كنت أرتدى فيه اللون الوردى! وجريت وفى مرآة الحمام مرة أخرى كنت أعد الشعيرات البيضاء فى رأس امرأة تخطت الأربعينات ولما حاولت اقتلاعها كان الألم شديداً لأنها تحس ولأنها تألم رغم بياضها وأنا بدورى سأبقى امرأة وإن اختلف المظهر الخارجى... سيظل داخلى يعرف معنى النبض... يعرف معنى الخفق... رباه حين واجهت الشئ الذى انتظره دق قلبى دقة الملتاع فعرفت معنى الانكسار من الأعماق وهويت على الأرض جالسة وأنا أضم - ركبتىّ إلى صدرى لأدرك بوعى عظيم جفاف الأيام القادمة وطول الليالى الباردة.

إرادته وتوزعت رغباته هل يرد على رنين الهاتف أم يسحب من كل تلك الأكوام من الملابس القميص من مكان والجورب من مكان آخر... ربطة العنق لعلها ملقاة في قاع الدولاب... إنه لا يعرف لأى شيئ مكاناً معيناً أو أسلوباً محفوظاً يلبى به حاجات نفسه... والهاتف مازال يدق... فليدعه يدق لابد أن ينتهى من العثور على قميص ويسارع بحلق ذقنه فالساعة قاربت الظهيرة ولابد أن يكون فى المحكمة خلال دقائق معدودة... ولكن أما آن لهذا الهاتف أن يكف عن إصراره على الدق؟! أذنه تعبت من الكلام فيه من السابعة صباحا حتى ذراعه تيبست عضلته من كثرة ما أمسك بالبوق... بقى له الحذاء وتوقف هنيهة قصيرة ليسترجع ألوان مايلبسه حتى يختار الحذاء المطلوب... لمح نفسه فى مرآة الدولاب المشروخة وتمثلت أمامه صورته شخصان

منفصلان... أخته تضع كوبا من الشاى ومعه «قرقوشتان» على منضدة صغيرة موضوعة حيثما اتفق ونظرت إليه تحثه أن يرد على الهاتف فاندفع ثائراً وهو يقول :

– أنا سمير وجدى...

– أهلاً... أهلا ياصباح الفل والياسمين و..

– لابد أنها امرأة التى كنت تحادثها كل هذه المدة.

– لا امرأة ولا غيره «ياسوسن»...

– ها... ها... ها... أنت حتى تنادينى باسمها!!

– آسف «يامنى»... المسألة أننى مشغول جداً... واننى إنسان غير منظم... وغير مرتب و... و...

– وكل هذا عرفته الآن فقط وأنا أكلمك ليس قبل مكالمتى أليس كذلك؟!

– لا.. لا ليس القصد إنما أنا كنت أكلم أحد القضاه زملائى

– ولا القاضيات؟

– لا قاضيات فى مصر... ليس بعد.

– إذن أعتبرنى قاضية؟

– أرجوك «يامنى»... أستاذنك وسأطلبك حين أفرغ فى المساء.

وسارعت منى إلى وضع السماعة قبله... ظل يدور حول نفسه إلى

أن انتهى من ملابسه... غرس كفه فى جيبه وهو يخرج جنيهات كثيرة لأخته لتجهز الغذاء... لديه خمسة أخوة آخرون. اثنان منهما يعانيان من فشل كلوى يعمل أيضاً مقاول بناء ليغطى هذه المتطلبات الباهظة......

أما «منى» فلم تقو بعد هذه المكالمة على أن تقوم من مكانها شيئ ما تلبسها فظلت على جلستها رغم أن آلاف الأعمال الصغيرة تشدها إلى البيت وهى تحب بيتها... لقد تركت عملها الحكومى بعد أن عادت من إعارتها فى أحد البلاد العربية وقالت يومها «أوحشنى البيت وأن أكون ست البيت والمال ليس كل شئ» إلا أنها بقيت مكانها... دمها يهدر فى عروقها... بعد أقصر مكاملة لها معه تصاب بصداع نصفى وتقضى باقى اليوم على جلستها هكذا... إلى أن يدق الهاتف بجوارها حوالى السابعة وتبدأ كعادتها:

– أنا ليس لى عندك شئ فلتتكلم مع من تشاء أو تخرج مع من تشاء ولكنى فقط أذكرك بأنك حين تجد هاتف بيتى مشغولاً... لا أخلص منك فلماذا تستبيح لنفسك أشياء تحرمها علىّ؟

– ببساطة لأنى أعزك... أود أن أعرف كل شئ يجرى فى يومك.

– ولكن أنا ليس من حقى؟؟

– لا ليس الأمر كذلك... وعلى العموم لك أن تسألى كما تشائين فلن أتذمر.

– المسألة ليست تذمرا من عدمه المسألة مسألة حقوق متبادلة.

ثم تسكت للحظة تقول بعدها:

– أول علاقتنا كنت تكلمنى عشرات المرات... بل وغالبا ماكنت تزورنى يوميا... أما الآن..!!

– لم يتغير شئ «يامنى» فقط عرفتك وعرفت مواعيدك واطمأننت فعدت لأنشغل بحياتى كسابق عهدى.

– حياتك النسائية ياترى... لهذا أنا لم أثق فيك لحظة منذ أن عرفتك.

– وماذا أيضا؟؟؟

بعد أن أخذت شهيقا واسعا انفجرت قائلة:

– لقد كنت حقا تطلبنى مرات ومرات لأنك كنت متخاصما معها أما وقد تصالحتما فالوقت كله أصبح لها وماتبقى بعد ذلك من فتات فهو لى...

بأسف شديد وضيق حقيقى كان يسألها:

– لماذا كل هذه الظنون. هل الشك يجرى فى عروقك إلى هذا الحد؟

خطفت الكلمة الأخيرة منه وهى تصرخ:

– الشك... ها... ها... ها أنا فقط لماحة... سريعة الفهم وهذا مايزعجك... وهذا مايقلقك... وهذا ما يجعلك تلف حول نفسك المسألة ليست قميصا أو ربطة عنق ضائعة ياحضرة القاضى...

وألقت بكل قوتها بسماعة الهاتف فأحدثت صوتاً له دوى... ثم

جرت إلى الحمام تضع رأسها تحت الماء البارد تارة ثم تحت الماء الساخن تارة أخرى تستعيد حيويتها بهذه الطريقة وينتظم الدم فى عروقها... تتوسط أمام مرآتها... لا تحتاج لمساحيق النساء بكثرة... قررت أن تلبس شيئا جديداً ولديها فعلا... لأنها ستبدأ من جديد... حياة لن ترتبط فيها بأحد على وجه السرعة بل ستنتظر وتختار بترو ونفس طويل... تجهز حقيبة يدها تضع النقود بجوار بعض الأوراق الهامة... البطاقة الشخصية ونوتة التليفونات... صور لأختها وأبنائها... حلوى أيضا ترقد فى قاع حقيبتها... وعلقتها بأناقة على كتفها... وبدون مقدمات فلم يستجد جديد... إنما اجتاحها إحساس بالضيق وتركت جسدها يسقط على الأريكة وألقت بالحقيبة بجوارها... لحظة إعصار داهمتها فاقتلعت فكرة خروجها من بيتها... فلا معنى لشئ... وما جدوى الخروج... تقاوم دمعة تود أن تقفز منطلقة من عينها... انتصرت وكبحتها... لا يوجد شئ يستحق البكاء... وتنبهت إلى صوت حسبته نباحاً فى بيتها فالتفتت مذعورة فلم تحب يوماً أن تقتنى كلبا... بعد أقل من لحظة عرفت أنه صوت الجرس وبلا إرادة كانت تفتح الباب وتسمرت مكانها... كانت صديقتها الدكتورة «فاطمة» التى لم تمهلها بل على الفور تململت وهى تقول «لو تأخرت لحظة أخرى عن فتح الباب لانصرفت... لى عشر دقائق أدق الباب والبواب يؤكد أنك بالداخل» وجها لوجه مع صديقتها على نفس الأريكة كانت تحكى لها تفاصيل ما حدث وأخيراً قالت لها بخمود رغبتها المفاجئ فى أن تخرج أو تذهب للشراء أو حتى أن تعمل أى شئ!! وبدت صديقتها عزوفة عن الخوض فى حكايتها واكتفت بسماعها فقط تهرب

منها هنا وهناك تغير الموضوع... تلفت نظرها إلى شئ جديد... تروى لها آخر الأخبار حتى نجحت أن تعيد البشر إلى وجهها... يتضاحكان وهى تعد لها الشاى فلم يكن من المعقول أن تواجهها الدكتورة «فاطمة» بحقيقه أنها نوع من النساء دائما دائما «يلعب الفأر فى عبها» فلا يمكن أن تثق... أو تصدق وبالأخص مع «سمير وجدى» الذى توطدت علاقتها به أثناء انتهاء علاقتها بصديقه... جاء وفاء لها وعرفاناً لتلك الساعات الجميلة التى أمضياها فى بيتها ومنذ اليوم الأول الذى زارها فيه قال لها: «لقد جئتك من منطلق الوفاء فأنا أعلم الناس بحبك لصديقى... وأنا أيضاً أحبه بل أجله فهو استاذى ومن علمنى... واننى أضع نفسى رهن إشارتك فى أى خدمة تطلبين» ورغم هذه المعانى التى تضعها على مسافة بالنسبة له إلا أنها تعدتها وقفزت فوقها وأباحت لنفسها ملاحقته ومساءلته. حجتها فى ذلك إنه قال لها يوما «إنه يحبها» وهو يحبها فعلاً... بل هو أول من رآها وشدته عيناها... إلا أن صديقه وأستاذه كان أسبق منه فى التودد إليها وأحب كل منهما الآخر إلى الدرجة التى كادت فيها أن تتدمر حياته الزوجة من إبنة خاله فتراجع حاسماً أمره... وبقى فى قلب صديقه عبق الذكرى الحلوة من طول معايشته اليومية لهذه العاطفة فأنبت داخله نوع من التعاطف تجاه «منى» أسماه حباً... أما هى فلم تستوعب فكرة هذه العلاقة الجديدة... لم تقبل أن يزورها ويسمع لها وفى بعض الأحيان يجفف دمعها دون أن يكون هذا حباً... عقلها لم يدرك زاوية وأبعاد هذا النوع الخاص من الحب وكعادتها «لعب الفأر فى عبها» وظنته يلجأ إلى محادثتها حين تجافيه امرأة ما يعرفها... ويبتعد عنها مع عودة حميميه العلاقة

بينهما... لم تفهم أكثر من هذا التفسير!!!

وقبل أن تغادرها صديقتها الدكتورة «فاطمة» وبعد أن استراحت إلى فكرة سعادتها البادية وهما يجهزان الشاي... وهمت أن تخرج من الباب إذ «بمنى» تقول لها فيما يشبه التوسل: «أرجوك ان تتصلى «بسمير»... وبطريقة غير مباشرة تدفعيه ليكلمنى... لقد تسرعت حين أغلقت الطريق فى وجهه و... و...» ابتسمت صديقتها... وفى أثناء عودتها شعرت بمدى رغبتها فى إرضائها ولم لا تكلمه من أجلها فهى تعرفه لقد أدى لها أكثر من خدمة... ولعل هذه الحادثة تكون بمثابة الدرس «لمنى» فتعرف أنه ليس شرطا أن تنقلب كل علاقة إلى حب... ولكن هناك أنواعا من العلاقات ترتقى فى مرتبتها إلى درجة الحب فقط وليس الحب ذاته.

ومن بيتها كانت تكلمه وكقطة تتحين الفرصة لدرجة أنها وضعت له أكثر من مصيدة بين كل عبارة وأخرى ليسأل عن «منى» وهو يهرب أو يراوغ... والدكتورة فاطمة قاصدة تعدل من وضع المصيدة إلى أن وقع... دخلها برجليه... صرخة فرح كادت تفلت منها... ها هو يستفسر عنها... لم تجبره على شئ... ولم تفتعل حدثا وبادرته من فورها «كما قلت فعلاً كثير من لمسات بيتى من اختيار «منى» وذوقها... فعلا أنا متأثرة بها... أنا لتوى راجعة من عندها... أمضينا الصباح سويا نشرب القهوة ولكنها للأسف»،،، ثم أطبقت صامتة... وبلهفة كان يقول من فوره:

– للأسف ماذا؟؟

– كانت متعبة جداً ويبدو.

– ويبدو ماذا؟؟

– يبدو أنها ستغرق فى حالة من الاكتئاب ما لم

– ما لم ماذا؟

– ما لم يخرجها أحد من هذا الهم فبوادره بدت عليها وانتهى الأمر بعد أكثر من دقيقة تفكير كان يقول لها:

– طبعا... طبعا أنت طبيبة ولابد أنك تفهمين مثل هذه الحالات... لم يكن ما ادعته الدكتورة «فاطمة» صحيحاً.. ولكنه مدخل كاف ليقلق رجل عنده هذا القدر من الوفاء لسيدة عرفها... ومساحة زمنية مرت بينهما طالت وطالت والدكتورة فاطمة مترقبة تتسمع أنفاسه... لعله يشعل سيجلرة... فليس من المعقول أنه يبحث عن ربطة عنقه أيضا كما كان يفعل فى الصباح وهو يكلم «منى» فانتظرت وانتظرت وأخيرا جاء صوته حاسماً يقول:

– يادكتورة «فاطمة»... أرجو منك رجاء أخيرا

– ما هو... ما هو؟؟

– أن تعتنى هذه الأيام «بمنى» قدر استطاعتك

كانت واضحة معه فسألته :

– هل تسأل عليها.

بعد لحظات وصلها اليقين فيها بأنه يفكر بعمق:

– سيدتى يقول أصدقائى عنى بأن لى معدة تهضم الحصى ولكنى أحاول منذ صباح هذا اليوم أن أشرب الكثير إلا أن عملية هضم معانى صديقتك المتواصلة والتى ترمينى بها ليل نهار قد استعصت علىّ فعلا... ولكن أرجوك أن تعتنى بها... لا تفارقيها... أما أنا فلابد أننى سأسأل عليها يوما... لا تدرى متى انغلق الطريق بينهما ولكنها أيقنت أنه لن يسأل عليها... وصل إلى الحد الذى لن يسأل عليها مرة أخرى لأنه أوصاها وصيته الأخيرة تجاهها.

لأنه الربيع...!!

اليوم

شيئ ما يزغرد فى القلب... يدغدغ الحواس... دقة القلب هى. هى ولكن اليوم بالذات كأن قلبها يحتضن يمامة... واليمامة غير مستكينة وفى نفس الوقت لا تستطيع أن تطير... فكان قلبها يرفرف بين حناياها... وتذكرت أنه موسم الربيع... هذه علامة من علاماته أن يرتعش مابداخلها فرحا... الطبيعة تمنح تمازجاً بلا حساب... مظاهر الود بادية على كل الناس... الجيران يتلمسون السلام والأشواق لبعضهم البعض والعيون مبرقة بالأمانى... إنه موسم الربيع والإخصاب... كأن الورود تشرب هواء ليس ككل يوم... هواء من نوع آخر... الحيوانات تتودد إلى بعضها البعض... حتى زقزقة العصفور ممتدة إلى العصر... ودوى طلق نارى وهى على جلستها فى الحديقة؟... فألقت «هدى» بالمجلة التى بين يديها وقامت منتفضة تجرى إلى الطريق واجهتها

«الست فوقية هانم» التى كانت تسحب بندقيتها من كتفها وبينهما الكلبة «فلة» ملقاة على الأرض فى دمائها!! ماذا حدث؟؟ جمع من الأطفال والكبار كانوا يتحلقون حول الكلبة القتيلة والتى بدا شعرها الطويل الأبيض مصبوغاً بالأحمر القانى!! وتساءلوا لماذا ياست «فوقية هانم» ؟... إنها حامل! لا يقل عن خمسة كلاب فى بطنها؟ هل يعقل... قتل الحيوان وهى عشار؟! لم ترد عليهم... لم تنبس ببنت شفة إنما استدارت لتدخل بيتها والبندقية على كتفها تقارب طولها... وهى توصد باب الحديقة الخارجى كان فى رجليها كلبها «ركس» مطأطئ الرأس ومشت فى عمق حديقتها بخطوات موقعة فى ثبات إلى أن وصلت إلى عتبه منزلها من الداخل وأوصدت بابه فى وجوههم!! عشرات من علامات الاستفهام تركتها فى النفوس... ودمعات مثقلة عرفت طريقها إلى وجوه الأطفال الماسكة بتلابيب أمهاتهم... وصارت هذه الواقعة حديث الشارع الضيق فى حى مصر الجديدة القريب من القاهرة... البيوت هناك متقاربة وأغلبها لها حديقة صغيرة... والست «فوقية هانم» إحدى ساكنات الشارع لم يعرف عنها فى يوم من الأيام أن لها نزعة شريرة... بل على العكس متعاونة مع أغلب جيرانها... تستضيف الأولاد كل ليلة تقريبا ليشاهدوا التليفزيون فى وجود زوجها وابنها الوحيد ومعهم كلبها المدلل «ركس» لتيسر لابنها ما أمكنها الصحبة والسمر ليس بعيداً عنها إلا أن أهل الشارع بأجمعهم كانوا يلحظون عليها قوة الشخصية وبعثرة الأوامر دون سبب وبلا توقف وخاصة بالنسبة لزوجها: «اغلق الباب يازكى... افتح الباب يازكى... لا تستعمل صنبور المياه بغزارة فهذه منازل قديمة من زمن الشركة البلچيكية وتحتاج

صيانة وحتى تجنبنا هذا لا تستعمل مرافق البيت بإسراف»!! لا تسمح حتى لكلبها أن يتحرك بحرية فإذا تمدد تحت أحد الكراسى فلا يجب أن تظهر رجلاه من أمامه أو يطل ذيله من خلفه!!

بعد قتلها للكلبة خاصمها أطفال الحى جميعهم... وبدؤوا يتكتلون ويجمعون الحجارة يجهزون النبال المتينة... وكسروا لها زجاج شباك بيتها المطل على الشارع... تسللوا إلى حديقتها وفتحوا الصنبور فغرقت الحديقة وخرجت وزوجها معها تأمره أن يتخلص من المياه الراكدة هنا وهناك... أحواض الجرجير غرقت وماتت الأوراق... وعند المساء حجرة من نبلة واحدة كانت تكسر لها الفانوس الكبير الذى يضيئ مدخل البيت فاندفعت خلفهم تنوى المسك بتلابيبهم... أمسكت أكبرهم فاتهم زميله... فأمسكت بزميله فاتهم ثالثاً... وهكذا إلى أن أتت على العشرة أطفال كلهم ولم تعرف من الذى كسر الفانوس؟ سمعت «هدى» وأمها الجلبة. صوت الست «فوقية هانم» لا يمكن أن يخطئه أحد لأن لكنتها أجنبية فهى تنادى الولد كأنها تكلم بنتا وتنادى البنت كأنها تكلم ولدا... فيعرف الكل أن الست فوقية التركية شديدة البياض تتكلم وتتشاجر مع بعض صبية الشارع... والدة «هدى» تركت بيتها واتجهت إلى الأولاد وبحكمة شديدة كانت تنجح فى صرفهم من تجمعهم حول الست «فوقية هانم» ثم وضعت ذراعها تحتضن كتفيها لتحثها على الدخول إلى بيتها وقد تراجعت «هدى» هى الأخرى تنتظر عودة أمها... بعد أقل من الساعة عادت الأم وآثار الضيق بادية على وجهها وطلبت من الابنة كوب شاى فقد انبح صوتها فى تهدئة الست «فوقية هانم» ومحاولة إقناعها بأن ثمن إصلاح الزجاج وتركيب لمبة أخرى لا

يوازى ما تخسره من صحتها وهى تحاول التحقيق مع الصغار... لأنهم صغار: «الصحة لا ثمن لها أماما انكسر فيمكن إصلاحه وتعويضه... و.. و..» وهى منهمكة تروى لابنتها كل شئ قاطعتها الفتاة بضيق:

– لماذا ياأمى دائما تدافعين عن هذه السيدة وكأنك تشفقين عليها... إنها متسلطة و.

– وماذا أيضا؟

– تحب السيطرة على جميع من حولها. أما يكفيها زوجها وابنها وكلبها فلا حرية لهم على عمل أى شئ إلا بأمرها و..

– وماذا أيضاً؟

– كأنها... كأنها تغار حتى على كلبها؟!!

تناولت الأم.. كوب الشاى من يدها بلا كلام ومشت فى خطوات متثاقلة إلى حجرتها وتمددت فى فراشها... لم تنس أن تلقى بتحية المساء إلى ابنتها وأن تطفئ النور كذلك... وحاولت أن تنام إلا أنها وجدت نفسها قاعدة تستند بظهرها على عمود السرير وكأنها تهيئ نفسها لتغرق فى هذا الشريط الذى لم ينمح عن جارتها الست «فوقية هانم»... لقد تزوج الأستاذ زكى منها من حوالى عشرين سنة... شابة قصيرة فعلاً ولكنها جميلة... وصار بياضها الناصع التركى مثار حديث أهل الحى وشعرها الأسود الطويل يحكون به الحكايات... شديدة الحيوية والسرعة لدرجة أنهم كانوا يقولون عنها بأنها ترى فى مكانين فى وقت واحد!! طاقة نشاط لا تخمد فهى تروى الحديقة وتخرج فراش ابنها

للشمس والهواء تجمع الياسمين فى طبق أبيض لتصنع منه عقودا جميلة وفى نفس الوقت تخرج من صنع يديها ألوان وألوان من الحلوى التى يحبها كل جيرانها وهى كريمة ما أن تنتهى من الصنف حتى تبدأ فى إرسال الهدايا منه لأغلب البيوت... أم الأستاذ زكى تعيش معها وتتباهى بجمالها وذوق ابنها فى اختيارها... يوم أن تزوجها كان يعمل مدرسا فى إحدى مدارس حىّ مصر الجديدة حيث يسكنون... عمله لا يستغرق إلا فترة الصباح إلى الظهيرة فقط... الناظر وهو يضع الجدول يراعى أنه عريس جديد ولابد أن يعود لعروسه مبكراً ما أمكن تسير بهم الحياة كل ما فيها يؤكد سعادتهما... وفى إحدى الليالى وكان القمر وحده سيدا للسماء أضاءها بسخاء فاشرأبت إلى عليائه كل النفوس... كانت العروس الصغيرة «فوقية هانم» هكذا اطلقوا عليها هذا اللقب منذ أن جاءت إلى الحىّ... كانت تستلقى على ظهرها تطيل النظر إليه فلقد كانت فى أوج فرحتها ونشوتها ولكن عريسها الأستاذ «زكى» توقف فجأة وهو يقول لها: «كفى الآن... أمى قالت لى بأن النساء تهد العافية!!» فأوقف فيض العطاء من قلبها ولم تنتبه إلا وهو يدير لها ظهره لينام..!! شىء ما انكسر داخلها... شرخ فى تواصل علاقتهما وقع... وهذا الخمود استمر بينهما رغم أن الحياة سارت بهما لها كل ألوان الطيف المعروفة ولم ينتبها إلى أنهما فقدا شيئا ما حلقة كاملة وأساسية من حلقات علاقتهما ضاعت فانفرطت السلسلة وان ظلت ملتحمة من بعض أجزائها... وكبر وليدهما أغدقت عليه أنواعا من الحب والتدليل والحنان فقد ظل وحيداً وهى وضعت فيه كل حبها الموؤود... استعوضت فيه شبابها أحاطته من كل جانب كظله تماما

لأنه وحيدها... عرفت الفرحة حين تشترى له ما يطلب وما لا يطلب والسعادة حين يتعلم جديداً فى دنياه... حتى تعلم الحب وإختار أكثر من مرة من جاراته وزميلاته فى الدراسة فكانت أمه تقاومه ترفض كل فتاة ينوى الاقتراب منها فهذه شديدة السمرة... والأخرى شديدة الطول... والثالثة ترتيبها الخامسة بين أخوات كثيرات أخريات... وفى هذه الأثناء اختارت له دراسة اللاسلكى فسافر بعيداً عنها يجوب العالم على ظهر باخرة يمارس فيها المهنة التى أتقنها... وفى أحد الموانئ غرق حتى أذنيه مع إحداهن... ولم يكن هناك مجال للنقاش لديه... لا يقوى أن يفارقها!... لا يريد أن يفارقها... وهو وحيدها... أمومتها يسرت له الطريق فلم تقاوم هذه المرة من اختارها رغم أن من انتقاها كانت غريبة عنها هناك من بلادها الغربية البعيدة إلا أنها رضيت بها وباختياره وإن لم يكن هذا هيناً عليها... ودون أن تدرى وبطريقة لاإدرية صبت جام اهتمامها على ذلك الحيوان فدوما كانت تقتنى كلباً بجوارها ولكن كما حرمت هى من تعميق علاقتها بالأستاذ زكى زوجها وفشلت هذه المرة فى إيقاف ارتباط ابنها بفتاته حرمت على الكلب بكل الوسائل الاتصال بالأنثى عن أى طريق!! لدرجة أنه حين كان يطلب منها أحد الجيران أن يرسل بأنثاه إلى كلبها «ركس» فى موسم العشار كانت ترفض بقوة مدعية أن كلبته من سلالة لا ترتقى إلى سلالة كلبها!!... إلا أن أهل الشارع وجدوا كلبة أحدهم واسمها «فلة» وجدوها عشارا فى أحد الأيام!! واستبعدت الست «فوقية هانم» أن يكون «ركس» فإنه لا يغيب عن عينيها فمتى حدث هذا؟ وأين؟ ولماذا؟ إلى أن جاء اليوم الذى ضبطت فيه «فله» تناضل من أجل أن تنفلت من فتحة فى

باب حديقتها الحديدى وحين استعصى عليها الوصول إلى ذلك استدارت وأدخلت مؤخرتها فقط من الفتحة وظل رأسها وصدرها فى الخارج أما «ركس» فبدا كأنه يفعل المستحيل لينجحا سوياً فى أن يدلف من باب الحديقة إلى أن التصقا ببعضهما... وكانت الدنيا ربيعاً... الورود والأغصان تتراقص حولهما موقعة... فدوى الطلق النارى وتكومت الكلبة ساقطة ومازال نصفها الأمامى يطل برأسها إلى الشارع ونصفها الخلفى بمؤخرتها داخل حديقة الست «فوقية هانم» شديدة الالتصاق بكلبها ركس.

سارت على مهلها نحو الباب... ضيوفها خلفها لهم تقريباً نفس خطوها إلا أنها كانت تفتح عينها على وسعها لتتأكد من وجود أشياء معينة فى أماكنها وكأنه ليس بيتها..!!! كأنها تتعرف على طريقها إلى باب الخروج بتلك الكراسى الموضوعة هنا وهناك بتناسق كبير وتردد لنفسها: «أكيد... أكيد أن هذا هو طريقى إلى باب الخروج... سأصل إليه لأودعهم وأشكرهم». بل ولابد لها من أن تنتزع تقديرهم كما كان يحدث فى كل مرة سابقة.

النسمة حادة ملايين الأشعة المثلجة تهاجم ساقيها الرفيعتين تحت الجورب الأسود الشفاف الصقيع يعتصرها بعربدة ففتحة الباب على مصراعيه دفع بشبورة البرد بلا روية تكتسحها تلسع أماكن من جسدها إلا أنها كانت ثابتة فى وقفتها أمام الباب إلا من شئ من التمايل

الخفيف فكانت تبدو كأنها نشوانة... ولم لا؟ فكل هؤلاء أصدقاء وأحباب لها اعتادوا أن تمتد بهم الأحاديث فى جلساتها معهم... ينصتون سويا لواحد منهم أو ينقسمون إلى مجموعات يتكلمون فى الطب ويتناقلون أخبار أحدث ما وصل إليه علم التطبيب... وهى طبيبة مثلهم فكانت تشاركهم رغم أن نصف عقلها كان يجوب هناك فى المطبخ يراجع الأطباق ويحرص على أن يقدم كل صنف ساخناً فالمكان رغم الأنفاس إلا أنه شتاء بارد... شقتها قديمة أقيمت فى زمان كان أكثر كرماً وأرحب صدراً... تتلفت بنظراتها لتراقب احتياجات الجميع ففرحتها بهم كبيرة... هل تشعر بكل الساعات التى وقفتها وهى تستعد لاستقبالهم وقبل أن تصل إلى هذه اللحظة؟ لا... لا بالمرة فقط كانت كأنها تطير من على الأرض تستعجل الساعات لتجد نفسها بينهم.

وهى تدور هنا وهناك سمعتهما؟ اسمه لا تخطئه مطلقاً... وهوى القلب منها... انخلع من بين ضلوعها بلا سبب واضح! فانزرعت بإصرار أكثر خلفها وفى نفس الثانية عرفت برحيله المفاجئ عن دنيانا! جثمانه سيصل بعد أربع وعشرين ساعة!! وهى مصلوبة مكانها تعى عبارة أنه سيأتى محمولاً... ضاق المكان عليها... تلامست الأجسام حتى الحريق... ذاقت طعم الجحيم... بلاط الأرضية تحول إلى رمال سافه تسحبها لتغرقها حتى أعلى رأسها... وطار الهمس بين الحاضرين مؤكداً الخبر الأكيد... إذن هذه هى الحقيقة... بل أن لا حقيقة غيرها... الكل يعيد حساباته... أوقاته... ارتباطاته... بعضهم كان عليه أن يذهب لحظة وصوله إلى المطار... والبعض الآخر سيكتفى بالسير فى الجنازة فقط... كل واحد يواعد الآخر كأن حدث الرحيل

يحيى الإحساس والرغبة داخل الآخرين فى أن يؤكدوا ضرورة رؤيتهم لبعض وفى أقرب وقت!!... وهى وحدها التى لن تذهب إلى هنا أو هناك... لقد كان أحد ضيوفها الدائمين يهتم بها ويؤكد حضوره رغم السنين والظروف مهما كانت قاهرة.

حكايتها معه بسيطة جداً وتحدث كل يوم ألف مرة فقد أحبته من يوم أن كانت فى العشرين من عمرها وكان هو يقارب الأربعين... رفض حبها وهو يقول لها: «هذا ليس حبا... فأنت طفلة وستغيرين رأيك مع المستقبل... وأنا لا أستطيع أن أغامر وأتزوجك» كان قاسياً وكان أيضاً حاداً لا عودة فى قراره ولكنها أصرت بأن تواجهه: «ولكنك تريدنى بكلياتك» فلم يراوغها إنما صارحها وكأن على طرف لسانه مشرط الطبيب الجراح وهو يقول: «انه فعلا يرغبها ولكن ليس إلى حد الزواج».

وإفترقا... وكبر الأستاذ الجراح صار عملاقاً يجوب العالم. المشرط بين أصابعه فى يد ساحر... وأنهت هى دراسة الطب ونضجت مع ثقل الأيام وأعيد التعارف بينهما من منطلق المهنة الواحدة والاهتمامات الواحدة... صار يقدرها ويستمع لها... يحافظ على دعواتها له فى أكثر من مناسبة طيلة عشرين سنة تقريباً... كانت مازالت على وقفتها والكل مشغول عنها... وعرفت الإحساس بدمها ينضخ فى حلقها... حصوات من الملح تجترها تبتلعها لأنها لن تراه ثانية... ومالت برأسها تنظر إلى صدرها كأنها تسأل نفسها كيف استطاع هذا القفص الصدرى الذى يخبئ قلباً أن يهتف به عشرين عاما كاملة!؟... وقبل أن ترد

على نفسها كان أحد ضيوفها ينفث بيقين بالخبر فى وجهها فلم ينفذ إلى عقلها... كأنه انحبس عند أذنها الوسطى فقط فبقيت معانى كلماته تصطك فى أذنها بأنه رحل.. أنه رحل... أنه... ورغم ذلك كان عليها أن تتماسك فلم يكن أحد من الحاضرين يعلم بدخيلتها... لا يعرفون أنه نوع من الحب عاش بلا مقابل... أحبته وعايشته بكل جوارحها وتمنت له السعادة والدوام وها هى الآن تنشطر لرحيله وتتصدع ولا أحد يشعر بها!!!

وابتدأ الجمع فى الانصراف وهى واقفة تودعهم يحلو تبادل العبارات وبعض الأفكار قرب الباب فتناضل متماسكة لتقف ثابتة بينهم... أصابعها تقبض على داير السام والصقيع يحفر فى عظامها... إلى أن وجدت نفسها وحيدة فامتدت يدها من فتحة ثوبها الخلفية تحت شعرها تحل نفسها من مشد صدرها وسحبت نفساً عميقاً لم يصل لقرارها... وهى تتخلص من حذائها من برودة الأرضية داهمتها حتى ركبتيها فقفزت فى خطوة واحدة لتقف على البساط وعرفت أنها لابد من أن تهوى بجزعها لتلتقط حذاءها... وهى تفعل ذلك سقطت بغتة من عينيها دمعتان ساخنتان وسارت فى الممشى تأمل الوصول إلى فراشها ولكنها توقفت لترتمى على الأريكة التى تتوسط المكان... استباحها الاعياء وفوقه رنين الهاتف... من دقاته عرفت أن المكالمة من الخارج فقفزت لا إرادياً وضاع آخر أمل لها فى أن يكون هو يؤكد وجوده حين ميزت صوت شقيقتها تنبئها بأنها أصبحت أما فقد وضعت مولوداً وسألتها أن تسميه... على طرف لسانها كانت تهتف باسمه «خالد» سموه «خالد».

خليط من التساؤل والدهشة كالإعصار لفها... ضغط عظامها... فسمعت بأذنيها هذه العظام تتكسر... فإذا كان الدكتور خالد بقدراته وأفكاره قد رحل فربما أتى هذا «الخالد» الجديد ليكمل خطأ واعداً كان... ووضعت السماعة بتأن شديد وتركت جسدها ببقايا عظامه يرتطم بجدار الأريكة الخلفيّ.

بين اليقظة والنوم ترى بيتها امتلأ عن آخره بنفس أصدقائها يتسامرون... يبتسمون.... يسألون والدكتور خالد بينهم فتحركت تريد أن تصل إليه... اقترب منها بنفس خطواته الواثقة ووقف أمامها... تحاملت محاولة أن تقف قبالته ولكن الجسد المنهك شدها إلى الأريكة الوثيرة فسقطت فيها أعمق مما كانت وسمعته يقول:

– شيء غريب حقا ما يحدث منكم!!

– ما هو الغريب أليس ما سمعت صحيحاً؟؟

– الغريب أنكم تفرحون للميلاد الجديد وتألمون للرحيل والعكس هوالأوجب... ففى الرحيل راحة لأنك تعرفين الحقيقة واليقين بل إننى صرت عند الحق وعرفت الصدق... أما ترى أن كل شئ خادع فى دنياكم وأننا نتعثر ونحن نحاول أن نتعرف على حقيقة من أمامنا لدرجة أننا نفقد صحة التقدير تماما.

– والآن هل عرفت كم أجبتك وكم كنت صادقة... إن هذا يهمنى جداً؟ اقترب منها أكثر حتى جثا على ركبتيه قريباً من رقدتها فى صدر الأريكة أنفاسه دافئه تلفح جبهتها وهو يقول:

– وهذا ما يؤكد مطلبى منك فمع الانتقال أو الرحيل أو الموت كما تسمونه نعرف الحقيقة ولا نخطئ التقدير مطلقاً... أليس هذا أدعى للفرح؟؟ من عينيها أطلت نظرة عتاب واسعة وكأنها احتوته داخل مقلتيها وهى تؤكد:

– ولكنك فارقتنا ولن تشاركنى أى حياة... إنى لن أراك... ولن أسمعك... لم يمهلها فقد رد عليها بتأكيد كبير وهو يقول:

– إلى حين فقط... إلى حين... والغريب أنكم تفرحون بالميلاد الذى نأتى إليه صارخين مستجيرين منذ اللحظة الأولى... لأنه مثلا ميلاد الحرمان منى الذى عشته عمرك والذى تجرعته مراً ... أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- إذن أنت تدعونى إلى أن أقلب ناموس الدنيا... أفرح لرحيلك وأحزن لميلاد «خالد» الصغير!!!

المعانى المتبادلة بينهما كانت أكثر من احتمالها مهما كانت حقيقية وصادقة فانتفضت متقلبة وكادت أن تقع من رقدتها أكثر من مرة إلى أن وجدت نفسها واقفة بطولها والمكان خالٍ إلا منها... لقد غفت غفوة قصيرة أفاقت بعدها لتجد نفسها منفردة بنفسها بعد انصراف ضيوفها والبيت قد خيم عليه صمت أليف كالذى تعودته من حياتها اليومية... مدت يدها تأخذ زهرة من الإناء الموضوع عن يمينها وجلست فى كامل صحوتها تقطف ورقة.. ورقة وهى تردد لنفسها أفرح... أحزن... أفرح... أحزن.

هل تعود..؟؟

فجأة

وجدت نفسها تضع حقيبتها على أقرب مائدة إليها وبرفق خلعت حذاءها العالى... مشت حافية وتحسست أرض الحجرة الباردة تحت قدميها ومن الشرفة كانت تُطل... عيونها صافحت شجرة الكافور الكبيرة وتسلقتها شغوفة خائفة!!.. عش اليمام القديم فى مكانه ولكن طار الزوج وزوجه يلتقطان الحياة وتساءلت: تراهما على أى ارتفاع من الأرض؟ كانت قد قررت ألا تذهب إلى عملها اليوم... وجلست إلى بعض أوراقها... صوت الزغاليل يداعب مسمعها وعاصفة فى الخارج على وشك الهبوب. لا تحب صفة التغيير حتى بين الأرض والسماء. فى أعماقها تحب الركود إلى الاستقرار وضجرة تساءلت: متى يعود الزوجان فالعاصفة على وشك الهبوب...

إلى أوراقها الحميمة التفتت واختارت أن ترد على خطاب صديقتها البعيدة... لم تكد تبدأ سطرين تقليديين وقبل أن توغل فى حكاويها معها إذ وجدته أمامها مقتحماً عليها خلوتها مع نفسها... سيل من الأسئلة المتتابعة يأكل فى صدرها... متى جاء؟ وكيف دخل؟ ولماذا يجئ الآن!؟ فقد كان أول لقاء لهما منذ افترقا... واستطاعت أن تقتلع بنجاح كل تساؤلاتها وانتفضت مرحبة به فقد كان أول لقاء لهما منذ أن افترقا.

ملهوفا كعادته يكلمها بضرورة عودتها ومع كل كلمة له تتدفق من عينيه رغبته الصادقة فى أن توصل حبال الود معه مرة أخرى... فإن البيت تنطبق جدرانه عليه وحيداً... والقطة الصغيرة تموء باحثة عنها... وحتى الجيران يصفعونه بالسؤال الصامت كل صباح والبيت خال منها... و... و... و...

أخيرا... وبعد تردد ابتعد عنها فقد كانت أصابعه تقبض على يديها بضغط ودود أكثر من مرة كأنه لا يريد أن يغادر المكان إلا وهى معه!! وحين أطبقت جفنيها أكثر من مرة كأنها تؤكد له أن رسالته وصلتها وقبل أن يتركها على وعد بلقاء قريب... جرت إلى نافذتها وهى ترهف السمع لصوت كابح عربته وهى توغل فى البعد عن منطقتها... ودارت عيونها دورة سريعة من فضاء النافذة... وعادت همهمات زغاليل اليمام تملأ أذنيها بذلك الصوت الذى تنتظر به عودة الزوج وزوجه من سفرتهما اليومية.

وتساءلت: لقد تبخر من عقلها كل فكرة كانت تنوى أن تثرثر بها على الورق لصديقتها فماذا تقول لها؟ كلمات غير نابضة عن الجو

والنصحة؟ كلمات بلا حياة! لآ... لا فهى تريد أن تكلمها عما يجرى... برفق أمسكت الورقات والقلم خطت إليها كل شئ... ما تعرفه صديقتها ومالا تعرفه... وهى مازالت تكتب وتكتب تعى تماما أنها تقرر بأنها لن تعـود... لن تعـود وتتـسـاءل فى آخـر سطورها: هل الفـرح العـمـيق بمحاولاته لا يمحو جرحا عميقاً كان؟ جرحها كان حتى شغاف قلبها وهو يهملها!! ينكرها!! وبنفسه يحملها أشياءها ليزيحها من حياته... وانسالت دمعتان متواصلتان على خدها الرقيق فقامت إلى الشرفة وأسندت جانباً من وجهها على إطارها... وهى تحدق فى شجرة الكافور بعشها... تحدق بدقة فتعى وعيا كاملا بأنها نوع من الأشجار التى تموت وهى واقفة.



ضراوة الحب

الدنيا

لها لسعة باردة استشعرتها أعلى ظهرها بين كتفيها... مسام ذراعيها اقشعرت وأصبحت مرئية فبحلقت «ليلى» فى ذراعيها وشاورها عقلها أن تترك الشاطئ وتعود إلى دارها ولكن يبقى دقائق وصديقتها «إيمان» تأتى لينزلا البحر سويا – قطع جريان تفكيرها «غطاس» الشاطئ الذى يقترب منها وبعد السلام والتحيات استرسل معها فى الحديث عن الأيام البعيدة من عشرين سنة مضت وترحم على والديها – سأل عن شقيقها الوحيد ولماذا لم يأت هذا العام ثم تركها حين نادى عليه أحد صبيانه.. وعاودها الإحساس بالقشعريرة.. قرص الشمس النارى تحجبه بعض السحابات الداكنة وقت الغروب إلا أن وهجه الأحمر يتخللها ويبزغ من الناحية الأخرى و«ليلى» اعتادت أن تستقبل أشعة الشمس الغاربة على وجهها وهى مغمضة العينين فى انتظار صديقتها «إيمان» سينزلان

البحر سوياً مثل كل عام في نفس هذا الموعد قبل الغروب بحوالى النصف ساعة فالشاطئ خالٍ تقريباً مع بشائر الخريف فلا شباب ولافتيات... المصيف هاجر أغلبه للحقاق بالجامعات والمدارس وهذا ما يشجعهما فكلتاهما تعشق البحر فى هذا الوقت وقبل أن تنزلق الشمس طائعة إلى أحضان أحضانه... وصلت صديقتها «إيمان» لها نفس عمرها هى الأخرى تخطت الأربعينات... جاءتها مهرولة مثل كل يوم... بنفس الخطو ونفس اللهفة وكأنها لم ترها منذ عام كامل!! وكأنها لم تكن بالأمس فقط معها بل وأن هذا يحدث يومياً فيما يزيد عن الشهرين الكاملين الآن... وقبل أن تستجمع نفسها لتهم واقفة من جلستها على الرمال لتستقبلها وصلها الإحساس كاملاً بأن صديقتها «إيمان» فى أقصى درجات ضيقها رغم محاولتها أن تبتسم حتى ظهرت بداية ضروسها ثم حملقت لبرهة فى الأشكال المرتفعة التى سوتها «ليلى» من الرمال وهى تسلى نفسها فى انتظارها وعن قصد أكيد داست فوقها بإصرار وهى تهمس بصوت مسموع «إنها قصور من ماء ورمال بماذا تفيد... إنها مثل حياتى» لم تنتظر «ليلى» لثانية واحدة بعد فعلتها إنما شدتها من يدها إلى البحر فالقرص المشتعل يقترب من الماء... وأدركت «ليلى» على الفور أن صديقتها «ايمان» تتوغل داخله إلى الأعمق ورغم أنهما تجيدان السباحة إلا أن «إيمان» تخطت المسموح به والممكن وهى تبعد بجسارة فانسحبت «ليلى» عائدة ولما تلفتت «إيمان» عليها بعد كل هذا البعد ولم تجدها خلفها استدارت تريد العودة اليها وهى تراها تجد فى هدوء وتصميم لتقترب من الشاطئ من حد الأمان وقد تظاهرت مرات بأنها لم تسمع «إيمان» وهى تنادى عليها

وعند خط الأمـان أخـذت تسبح فى خط مـسـتـعـرض إلى أن وصلت «إيمان» وهى تلهث فصرخت فيها «يامجنونة... هل معنا طوق نجاة... إفترضى أن إحدانا تعبت إننا لم نعد صغارا لمثل هذا الاندفاع والشاطئ خالٍ تماما آخر الصيف» إنتبهت لها «إيمان» فى استسلام ومازالت تلتقط أنفاسها بصعوبة ولم تنبس ببنت شفة... اقتربت «ليلى» منها أكثر وهالها أنهـا تبكى... دمـوعـهـا اختلطت بماء البـحـر فلم تلحظهـا فى البـدء... الدموع تتدحرج فى داخل التجاعيد القليلة التى فى وجهها والانتفاخ تحت عينيها ازداد احمراراً فمدت يدها تمسح دموعها المتأنية ولم تفلح أن تجـفف وجـهـهـا فدمعاتها تترى بتأكيد إثر بعضها وموج هذا الوقت من غروب آخر الصيف يتسابق ليلطم رأسها ورغم هذا كانت «ليلى» لها القدرة على التفريق بين ماء البحر ودموع صديقتها!! وبابتسامة كانت تقول لها «دموعك ساخنة أما ماء البحر فهو أبرد بكثير» وسحبتها من يدها يـخـرجـان إلى الشاطئ... نظرت «ليلى» خلفـهـا فلم تجـد قـرص الشمس لقد غافلهما ومرق إلى الأعماق... جلسا وقد وصلهما دفء الرمال محسوساً... كل واحده.. تلتف بما يقيها من لسعة البرد بعد أن هجر الوهج الشاطئ... تعمدت «ليلى» أن تتلاطف معها تشدها بكياسة وحنكة عمرها إلى أن تبوح لها بما يحزنها وكانت إجابتها المتوقعة «إنه لا يشـاركنى فى شئ على الإطلاق ناهيك عن نزوله المـاء مـعى وهو الذى كـان بطل مصـر للسبـاحة لسنوات كثيـرة قبل أن نتزوج... ولا يرضى حـتى أن يتـمـشى مـعى على الشـاطئ أو يقـبل ان أزامله وهو يشترى لوازمه الشخصية! دائما اهتماماته بعيدة عنى فهو إما يقرأ كتابا أو يتعمد أن يتوه منى وينغمس فى الجمعيات الخيرية الكثيرة والتى

أصبح ولوعاً بها مع نوعية معينة من النساء إما الأرامل أو المطلقات أو اللائى الوقت لديهن براح..! إنى أشعر فى كل دقيقة لى معه أنه يتهرب من أن يختلى بى بأى حال من الأحوال.. فهل كرهنى؟! هل أصبحت لا ضرورة لى الآن ولعله محرج من أن يواجهنى بحقيقه شعوره هذا و... و... و..» وكمن أحرق «ليلى» وهج كلامها لتوقن أن الشكوى حين تأتى من امرأه كبيرة وحين تتساقط دموعها تعبر وتتخلل غضون وجهها يكون لها وقع أشد إيلاماً وتمنحها شعوراً مكثفاً بالمرارة وكأنها تستكثر كل هذا الألم والعذاب على امرأة لها مثل عمرها فربتت عليها وهى تضغط كتفها كأنها تستحثها أن تتوقف... قدمت لها عنقود عنب بناتى وأطعمتها بيدها واحدة بواحدة إلا أن «إيمان أكملت فى ضعف تقول «ابنتنا الكبرى تزوجت والأخرى تعمل فى إحدى البلاد العربية ولم يبق لنا إلا بعضنا فلماذا يهرب منى بكل وسيلة هكذا» مرة أخرى أشارت لها «ليلى» بيدها كأنها ترفض كلامها وناوشتها بكلمات عن الحب الباقى... عن اعتزاز الرجل بأم أولاده وعن... وهى تحاول أن تدخل فى روعها أن كل ما تحس به محض تصورات وخيالات إلى أن أفلحت أخيراً أن تشد ابتسامة من شفتيها حتى بانت أول ضروسها.. كان الوقت قد مشى بهما إلى بداية العتمة ولسعة البرد محسوسة فقاما سوياً يلملمان ملابسهما ألصق ما تكون ليدرءا البرد.. مشيا فى الرمال البيضاء تتضاحكان وهما تقيسان آثار أقدامهما الغائرة وكان دار «ليلى» الأقرب فدخلا وهى تعدها بفنجان شاى ليس كمثله فنجان... كل ماالديها قدمته لها حتى ارتسم شعور الرضا على وجه «إيمان» ولم يبق بينهما إلا المصارحة كما وعدتها «ليلى» ستكلمها بصدق عن وجهة

نظرها فى حال زوجها ولكن فجأه سقط على «ليلى» واحتل نفسها نوع من التردد السقيم وتلعثمت لا تريد الكلمات أن تخرج من فمها وهى المرأة الكبيرة الناضجة أمام صديقتها الكبيرة مثلها فماذا تقول لها؟ هل تصارحها بأن جفاء زوجها وبعاده المستمر هى المتسببة الأصلية فيه! هل تقول لها بأنها منذ تزوجته من أكثر من عشرين سنة ودعت يومها «ليلى» إلى عرسها كانت فرحتها لا توصف فلقد سرقها جماله وبهاؤه عن كل من حولها والأكيد أنها غرقت فى حبه إلى أبعد من أذنيها ثم أنجبت الابنتين فلم يزدها هذا إطمئناناً بل أشعل نوعا من الغيرة عليه من ضراوة حبها له وهاجس يقلقها فى نفس الآن من أن تفقده!! وهو يعمل طبيبا باطنياً ورغم أن كل من يأتى اليه يكون فى حالة صحية ونفسية خاصة إلا أن غيرة «إيمان» لم تهدأ... وفى بداية حياتهما استقطع حجرة من المنزل وخصصها بمثابة حجرة للكشف فكانت تبقى خلف الباب راكعة على ركبتيها تتلصص عليه من ثقب الباب وهو يقوم بالكشف على إحدى مريضاته وكان هذا يضايقه كثيراً ولكنه لم يتوان فى ذلك الوقت البعيد من أن يؤكد لها ويقسم على شرف قصده وتعده «إيمان» المرة بعد المرة وهى غارقة فى خجلها بأنها لن تعود إلى التلصص عليه وإنها... وإنها و... إلا أن لوعة حبها له رغم الاستقرار الذى يعيشان فيه... رغم عبق الابنتين كالزهر من حولهما الا أن هذه اللوعة لم تخمد أبدأ كل يوم تحبه اكثر من اليوم الذى سبقه... لسعة الحب لم تخمد داخلها... كان مجرد عبوره من أمامها وهى معه فى بيت واحد كان يطحنها حباً... وكبرا سويا... وكبرت الابنتان وزاد

الدخل الى الحد الذى جعله يمتلك عيادتين يقسم وقته بينهما... وتركا الشقة الصغيرة وسكنا أرحب الأحياء.

أكثر من عشرين سنة مرت كأنها حلم طويل موصول لاشئ يقطعه ويجعلها تضيق... الحلم يطول وفى أغلبه كان محتملاً بل يميل لأن يكون جميلاً خاصة حينما ابتدأ زوجها يجتهد ليتفهم الدين... يقرأ الكتب... يكثر من الصلاة تتشابك حبات المسبحة دائما بين أصابعه التدرج الطبيعى مع تغيرات العمر والتى يمر بها الإنسان.. النضج وسبر غور الدنيا ليعى كل مخلوق أن لا شئ يعادل لحظة تفكير فى اليقين الوحيد... التقطت «إيمان» هذا الاتجاه كأنه ضالتها وبدأت تتكلم عن هذا الذى استجد عليه بكثير من المبالغة والافتخار يسمعها بأذنيه وهى تتقول عليه الأساطير فهو لا يهجع ليلاً ولا يتوقف عن العمل صباحاً.. كما أن مسبحته تضاء بين أصابعه وهو يسبح عليها.. حبيبها وزوجها الذى تغار عليه حتى اللوعة حتى الوجع يلتفت إلى معان جديدة.. معان مريحة.. «إيمان» باتت أهدأ نفساً.. انتظمت دقات قلبها الأهوج.. اتزنت حركاتها هدأ تأجج القلق واللهفة التى كانت تتابعه بهما وهو بدوره وربما دون أن يعى وعياً كاملاً أنه بقوة دفع حكاويها إزداد إنغماساً وإزداد ولوجاً فى الطريق الجديد لدرجة أنه زهد العمل وقالها لأصدقائه «لقد عملت كثيراً وآن الأوان أن أستريح وأتفرغ لنفسى وأتفهم حقيقة هذه الحياة»... شجعته «إيمان» ودفعته دفعاً أن يعتزل كل شئ ظناً منها أنه سيتفرغ لها.. لن يكون لديه مرضى ومريضات ينشغل بهم عنها ولن يلهث طوال اليوم بين المستشفيات يتابع الحالات.. لن تتصل به الزميلات الطبيبات والممرضات أيضا.. وقد تزوجت الابنة

الأولى والثانية على وشك الزواج.. لن يبقى له إلا هى صباحا مساء.. سيقضيان أجمل أيام حياتهما.. و«إيمان» مستمرة بلا توقف فى خلع الصفات والأخلاقيات عليه فهو من الجامع إلى البيت ومن البيت إلى الجامع وإذا خاطب أى انسان فإن عينيه شاردتان إلى اللانهائى لا ينظر إلى أى مخلوقة وهو يكلمها.. هجر لعب الطاولة والدومينو. الشىء الوحيد الذى يمارسه هو لمس حبات المسبحة.

إنتبهت «ليلى» من سرحتها الطويلة لعشرين سنة مضت فاصطدمت على الفور «بإيمان» شاخصة إليها.. تريد أن تسمع رأيها وتأخذ مشورتها كما وعدتها... محاصرة تماما بنظرات «إيمان» إليها... فكرت لبرهة ثم عرضت عليها أن تقدم لها كوبا من «الزبادى» من صنع يديها ولم تنتظر ردها إنما جرت لتحضره وهى تناولها إياه و«إيمان» سعيدة بحفاوة صديقتها لها إذ اشترطت أن تتناول معها هى الأخرى كوبا... تلقفت «ليلي» من فمها هذا الإصرار حتى تهرب من وعدها لها بالمصارحة. وهما تأكلان كانت «ليلى» توقن أن صديقتها من ضراوة حبها لزوجها ومحاولتها أن تستأثر به لنفسها وفقط شجعته ودفعته إلى التمادى والجموح الدينى حتى زهد وانعزل تدريجياً عن حياته كطبيب وعن حياتهما العادية كذلك فما الذى تطلبه منه الآن؟ المسامرة والمشاركة!!

انتهيا من أكل «الزبادى» وقامت «ليلى» واقفه لتأخذ الكوب الفارغ من يد «إيمان» واتجهت إلى المطبخ ولما عادت كانت تقرر أنها لن تكلمها الليلة ستهرب من مواجهتها فماذا تقول لها؟ هل تقول بأنها كانت

دوماً خاسرة.. عندما كان شاباً بهياً كان الخوف من أن تفقده يوجعها.. ولما زهد فى كل شىء كادت الوحدة أن تميتها فوجدت نفسها بلا تردد تقـول لهـا: «إيه رأيك لو أجلنا الكلام الليلة؟» وهالهـا أن تلتـفت إليـهـا «ايمان» مستفسرة: «كلام إيه الذى تقصدينه» وأيقنت «ليلى» أنها أمام امرأة عزيزة جداً عليها إلا أنها اعتادت ولعلها استمرأت العيش مع وضع خاص جداً صنعته وغزلته على مراحل طويلة وبنفس طويل.. طويل فيه تألم وفيه تعانى وفى هذا الخضم أيضا تعيش ينقضى يومها ويطلع عليها نهار جديد تنزلان فيه البحر... تتضاحكان.. وتعودان وتنسى «إيمان» كل شىء وكأن لم يكن... أما «ليلى» فقد طحنت عقلها من بعد الغروب فى كيفية مواجهتها بواقع هى صنعته بنفسها.

الصفقة

كان يقترب منها عن طريق الهاتف بعد منتصف الليل... طوال ثلاث سنوات يطلبها الدكتور «فايز» يطمئن عليها يتمنى أن يلقاها ودوما ترفض تتحجج بأكثر من سبب وسبب وحين تقسو عليها وحدتها والفراغ الذى تعيشه وفوق هذا يطالبها ابنها الذى يدرس البحار والمسافر دائما أن تغير له شقته أو تجدد له ملابسه أو تشترى له شبكة لعروس جديدة ينوى الارتباط بها وهى تمهله حتى تأتى أرباح الوديعة التى تضعها فى أحد البنوك من عملها أكثر من عشر سنوات فى إحدى البلاد العربية كمهندسة ديكور.. حين يتكاثف عليها سيل الطلبات من ابنها «طارق» وتوغل الوحدة داخل روحها لتؤكد وقوفها بلا سند فى حياتها تجد الهاتف يدق وتخطف البوق وهى عن يقين أنه الدكتور «فايز».

وفى ليلة قال لها إنه استأجر شقة لتكون له عيادة وإنه يطلب منها أن تقوم على تأثيثها بذوقها الرفيع... فرحت وإن لم تحدد سبب فرحتها فربما لأنها كانت تتابعه هذه السنوات الثلاث وهو يذاكر ويجتهد لينتهى من دراسه الطب وبعدها من سنة الامتياز تقطع معه مراحل قطعتها من قبل مع ابنها... والآن يعد نفسه للحصول على الدكتوراه. تأثيث العيادة كان سببا كافياً لأن تستقبله فى بيتها. جاءها مهرولاً يقص عليها كل كبيرة وصغيرة مر بها فى السنوات الثلاث... وخرج من عندها على موعد فى اليوم التالى ليفرجها على المكان الذى استأجره. جلس أمامها وهو يستمع لها... «سنضع اللمبات فى هذا الركن والمكتب فى هذه الجهه من الحجرة. والأرضية يجب أن تتغير و... و... و...» كان مبهوراً وهو يستمع لها وهى تعيد تخطيط ورسم المكان من أوله إلى آخره... سرقهما الوقت وشعرا بالجوع... وقفا سويا فى المطبخ يجهزان شيئا يؤكل... فى اليوم الثالث كان على بابها مبكراً فتحت له ولم تكن فى كامل يقظتها بعد... أعد لها هو كوباً ساخناً وتناول هو الآخر واحداً... نزلا سويا لشراء مايلزم من أدوات الكهرباء والقطع الصحية... طلبت المعلم الذى تتعامل معه فى أعمالها كمهندسة ديكور وضغطت له المصاريف إلى أقصى ما يمكنها. همست للمعلم بأنها لا تريد أى ربحيه من هذه العملية فقط التكاليف وأجرة يده... بعد أن رجعا إلى بيتها كان التعب واضحاً عليهما دخلت المطبخ لتجهز شيئا... أخذ ما قدمته له بلهفة وفرحة وفجأه «كَبَسَ» عليه النوم فألقى برأسه إلى الخلف وراح فى سبات كامل... تركته ودخلت حجرتها تستلقى هى الأخرى ولكنها قامت قاعدة شئ ما أقلقها. «صعَبَ» عليها وقفت أمامه تتأمله وهو نائم

فى سكينة وضعت يدها على كتفه لتوقظه فسحب يدها وقبلها... قادته إلى حجرة نومها تمدد على الفراش وأغلقت الباب عليه.

صار وجوده معتاداً فى حياتها تنتظره لتطلعه على أحسن ما وصلت اليه فى تأثيث العيادة ولم تنقطع اتصالاته الليلية بها ما أن يتركها إلا ويكلمها فور وصوله بيته. وفى ليله كانت ترى فيها القمر من رقدتها قال لها إنه أصبح يدمنها.... بل يحبها ويتمنى الارتباط بها بغريزتها كأنثى فرحت بعرض الزواج إختلجت على رقدتها ثم اعتدلت وهى تقول له: «أنا أكبر منك بخمسة عشر عاما. أنا كان يمكن أن ألدك. أنت فى سن إبنى أنا... أنت و... و... وضع سماعة الهاتف بجواره لم يغلق الطريق بل تركه مفتوحاً وهى تتكلم كأنها تؤكد لنفسها هى أن فارق السن أمر لا يستهان به و... و... ودق جرس بيتها ولما فتحت كان هو قبل أن يجيبها كان يقدم لها ورقة لمحتها وهو يقول لها: «إما أن نذهب الآن للمأذون واتزوجك فوراً أو أن توقعى على هذا الورقة لنتزوج عرفياً إن كان هذا يطمئنك أكثر» واستدار ليخرج بلا توان على وعد بأن تفكر....

فى هذه الليلة لم تنم لم يفلح القمر بكل جماله وضى أشعته الساهمة أن يغريها بالنوم... وفى الصباح كانت تهز رأسها أمام المرآة لتؤكد لنفسها رفضها لعرضه بأى حال من الأحوال يومها مشغولة فى محاسبه المعلم أو النزول معه لشراء الطلاء بنفسها فهى تريد أن تضغط له المصاريف إلى أقصى أقصى درجة وهو معها لايتركها يتكلم عن حلمه فى أن تكتمل العيادة.. ترك فى بيتها مجموعة من كتبه وكثيرا ما كان

يتركها تعد الطعام وينزوى فى إحدى الحجرات ليذاكر... الإحساس بأنها أصبحت مسئولة عنه يكبر داخلها فتعد له كوبا من العصير أو فنجان قهوة لتساعده على التحصيل.

وفى مره خرجا سويا ليفاجئا بأن عجلة عربتها انهزمت مستسلمة للأرض دخلا الشقه وخرجا يبحثان عن منفاخ وعن بعض الآلات التى تساعدهما وبينما تشير له عن مكان الأدوات إذ وجدا نفسيهما فى حضن بعضهما والدقائق أو لعلها الساعات تأكل الزمن من حولهما ولم يشعرا إلا والفجر ينقر على شقتها ليؤكد أنه أتى.

... ...

أفاقت إلى أنها وصلت إلى حد لا رجعة فيه ورفض عرضه بالزواج معناه أنها تقبل هذه العلاقة غير المحددة وغير الواضحة للناس والمجتمع. جلست الليالى وحدها فقد طلبت عشرة أيام لتعطى قرارها الأخير تطحن عقلها... تخاصم النوم... تخاصم نفسها لم يكن أمامها إلا حل واحد، أن يتزوجا... وجاءها فى اليوم المحدد فاجأته بأنها وافقت على الزواج. قبل أن يفرح بموافقتها كانت تقول له «ولكن لى شرط قبل أن تنفذ أى خطوة» كطفل كبير ربع زراعيه وجلس صاغرا أقرب إلى الطاعة وهو يستمع لها وقالت: «أعرف أن عمر هذا الزواج سيكون قصيراً... ومهما كانت درجة حبك لى فأنا أكبرك بخمسة عشر عاما يعنى أن هذا الزواج محكوم عليه بالفراق هذه حقيقة لا تغيب عنى ثانية واحدة ولكنى أحببتك ربما أكثر منك بل وبفارق لا يسهان به فأنت بالنسبة لى أمل أخير قبل السقوط الأكيد» وعلا صدرها وهبط عن

تنهيده حارقة وهو على جلسته كقط أليف ثم أكملت: إلى أن يأتى هذا اليوم وهذه الساعة بالذات كل ما أطلبه منك هو الاخلاص لى مادمت زوجة لك ففى الإخلاص والصدق سعادة لى سأحسها وأعيش بها، ثم أحنت رأسها وهى تنظر إلى يديها المشتبكتين فى حجرها بعدها حدقت فى عينيه عن قصد وهى تقول: «وأنا من جهتى فى هذه المدة سأبرمج قلبى وعقلى على أنك سترحل عنى... ستتركنى لأى سبب من الأسباب فكما قلت لك مرارا حين ينتهى تأثيث عيادتك وحين تصير معروفاً فى منطقتك سيأتى إليك أحسن العائلات ليعرضوا بناتهن عليك» ضحك وهو يؤكد لها حتمية أن تبعد شبح هذا الوهم عن رأسها ولكنها أصرت عليه بثقة فقد كان هذا هو شرطها الهام

... ...

وأصبحا مشغولين بشقتين العيادة ومنزلها. تخلى له حجرة... تعيد طلاءها.. تشترى مكتبا يتسع لكتبه الكثيرة... وضعا فى خطتهما شراء القواميس الطبية... يجب أن تخبر بعض أفراد عائلتها... باق أيام معدودة وتأتى أختها من سفرتها... لابد أن ينتهزا فرصة إحدى الأجازات لابنها. كل يوم تحدد موعداً ثم يتأجل لسبب من الأسباب. والأسباب فى مجملها مقنعة وضرورية هو الآخر تكلم مع والدته ووالده أقنعهما بعدم أهمية فارق السن بينهما. جعلهما على اتصال بها شبه يومى إذا تأخر يعرفان أنه يستذكر فى بيتها... وإذا امتنع عن الطعام يعرفان أنه ولابد قد تناول وجبة فى بيتها تجرى الأيام فى إثر بعضها والكل ينتظر يوم تحديد الزواج!! لم تتوقف كثيرا عند لهفة والديه على

تحديد موعد الزواج لم تتمهل وتسأل نفسها عن سر موافقة والديه... ماالذى يدفعهما إلى الترحيب بمثل هذه الزيجة!؟ ولكنها لاحظت أنه على غير عادته يبدأ فى التثاؤب بعد التاسعة بدقائق يخلع نظارته ويمسحها اكثر من مرة وهو يعلن لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بأنه فى احتياج للنوم المبكر وينصرف عنها وتجلس هى مع نفسها لتكتب حساباتها... دفعت الكثير للعيادة ويبقى عليها الأكثر أيضاً... شهادة تخرجه وضعت لها بروازا بماء الذهب... آيات قرآنية مطلية بالذهب الخالص أيضا... المصاريف كانت أكبر من واقعها المال لا يهم فهو، فى بداية حياتة العملية. واصبحت تأتى بأشياء كثيرة لم تكن تهتم بها من قبل. تبيت وأنواع من الدهانات على شعرها وعلى وجهها.. تطفئ النور ثم تقوم واقفة وتقترب من المرآه لترى وجهها ثم تعود وتطفئ النور لتقوم مره ثانية قاعدة فى فراشها لأنها نسيت أن تضع على كفيها زيتا موصوفا وغالبا ما تنام محتضنة الراديو لتسمع أحلى الانغام... لتنام والسعادة عبق تتنفسه.

راحت عليها نومة إلى العاشرة على غير عادتها. إلى ان أيقظها رنين الهاتف بإلحاح وحين خطفت البوق كانت تتوقع أنه الدكتور «فايز» يقول لها كعادته: «صباح الخير والفل والياسمين» ولكنها فوجئت أنها والدته تمالكت نفسها وهى ترد عليها تحية الصباح وتكلما سويا وهى تسألها عن الترتيبات التى لا تنتهى. تستعجلها والمهندسة «منال» تعدها بأن الأمر سيحسم هذا الأسبوع ثم فاجأتها والدته وهى تقول: «إنه يتركك كل ليلة بعد الثانية صباحاً فلماذا تمضيان باقى الليل وأنتما تتحدثان فى الهاتف» أجفلت «منال» وبدأت تستفسر منها وعرفت أشياء

وأشياء أولها أنه حين يتركها فى التاسعة لا يصل إلى بيته قبل الثانية صباحاً وفوق هذا فهو يتواصل مع من كان عندها حتى مطلع الفجر لدرجة أن والدته قالت بأنه حين أحس بها خارجة من حجرتها عند الفجر شعر بالخجل وأغلق الهاتف سريعاً. حريق... شب فيها حريق من داخلها ومن حولها ما كانت تخشاه حدث... حدث أسرع مما كانت تحسب.

ظلت على مكانها الساعة بعد الساعة إلى أن جاء... أخذ قعدته... شرب ما طلبه... تصفح كتبه... تكلما عن العيادة وماذا بقى فيها من شغل وجاءت اللحظة التى ينتظرها فتناوم وهو يسترق النظر إلى ساعته فتناومت هى الأخرى وهى تؤكد له ان عليها فى الغد الذهاب مبكرة للعيادة. انسل من منزلها ومرت الدقائق وكانت وراءه بعربتها وعند عمارة معينة فى حىّ المهندسين توقف وطالت وقفتها الى أكثر من ثلاث ساعات إلى أن نزل فعادت إلى بيتها وحاولت الاتصال به فكان الهاتف مشغولاً حتى الفجر... والدته لا يمكن أن تكذب بعفوية قالت لها كل شىء وهى تظن أنها تعاتبها أو تتظارف معها... إنتظرته فى اليوم التالى وأتى كعادته وما أن بدأ يتثاءب إلا وواجهته «أين كنت بالأمس... مع من تقضى بداية الليل إلى الثانية صباحاً ثم تكمل معها عبر الهاتف حتى مطلع الفجر... لقد قالت لى أمك على كل شئ» عند عبارتها المتعلقة بأمه لم يستطيع أن يتمادى فى الانكار إستسلم للحظة ثم استجمع شتات نفسه وهو يرفض تماما أن تسلبه حقه فى أن يجرى مكالمه تليفونية مع من يشاء! ووقتما يشاء! لأنه يتركها تتكلم أمامه مع من تريد ومن يطلبها. نبهته إلى أن الفارق شاسع بين مكالمة تبدأ بعد

الثانيه صباحاً إلى مطلع الفجر وبين مكالماتها وفوق هذا فهى لم تخف عليه أى مكالمة... كل شئ يحدث أمامه وبمنتهى الوضوح والصراحة مع كل من يكلمها تضع النقاط فوق الحروف وتعلن أنها على أهبة الاستعداد للزواج بمن أحبت فسدت الطريق على أى نوع من التفكير فيها... ظلا يتناقشان والدكتور «فايز» فى كامل صحوته يختلس النظر إلى ساعته بيأس وأخيراً قالتها بمرارة: «أنت لم تتصرف معى بفروسية... لقد اتفقت معك أنك ستعطينى عاما وأنا أعلم أنك لست لى ولكنى فى هذه المدة سأبرمج كمبيوتر أحلامى بأنك ستتركنى... ولكنى لا أوافق أن تتركنى الآن وأنا فى قمة عطائى لك» فرد عليها بنوع من الاستخفاف: «أى عطاء الذى تتصورين نفسك قد» قاطعته وكأنها تكلم نفسها: «ليس من حقك أن تسرق حلمى وتسلبنى إياه وإلا حرمتك أنا الأخرى من تحقيق أحلامك فى عياده فاخره ثم إبتسمت بمرارة وهى تكمل له: «الواحدة منا وهى صغيرة تحتضن عروسة لأنها تحلم أنها أم... وأنا رغم كبر سنى إلا انه كان عندى حلم أحببت أن أحققه» ثم علت ضحكتها ورغم هذا بدت أنها تكلم نفسها أيضاً «أنت لم تلعبها كما يجب.. كان حقك تكون طويل النفس اكثر من هذا مع المرأة الكبيرة إلى أن تصل لحلمك» فرد من فوره بسخرية «كل هذا لأنى تكلمت فى التليفون كما قالت لك أمى» «ليست المكالمة ولكنه الكذب... عدم الصدق وخيانتك لإتفاقنا والأدهى من ذلك أننا حتى لم نبدأ بعد. احمد الله اننى كشفتك» عند هذا وانتفض خارجا يصك الباب خلفه.

كم من الساعات مرت عليها وهى متصلبة مكانها... جسورة كانت الحقيقة والوحدة يزحفان عليها بألم لم تعشه من قبل... ودق الهاتف

بجوارها فخطفت البوق من أعماقها تتمنى أن يكون هو يسترضيها... يخلق أعذاراً أو وعوداً... ولكنها كانت أمه فى صوتها غصة وهى تنبئها بأن الدكتور «فايز» فى حالة من الضيق شديدة وأنه يلومها لأنها. قالت لها بمكالمته الليلية وهى تحكى لها كانت «منال» تعى أنها فى صباح اليوم التالى على خروجه من بيتها وهى مازالت على جلستها من الأمس وسألتها أمه عن موعد انتهاء العيادة فكان ردها ان طلبت منها أن ترسل أحداً يأخذ الصناديق المملوءة بمستلزمات العيادة... بعض أدوات الكهرباء... وقماش للتنجيد ومنبه فاخر و... و... و... لانها لن تستطيع أن تكمل شيئا. اعتذرت والدته فليس لديها من ترسله لها وهى تكلمها دق الباب دقاً متتاليا فأغلقت الطريق بينها وبين والدته على أن تكلمها بعد فترة قصيرة وفتحت الباب. كان واقفاً امامها وقد وضع على وجهه كل معانى الضيق والضجر... أفسحت له ليدخل وحاولت أن تساعده فى سحب الصناديق الكثيرة من حجرة السفرة ليأخذها... ابتسم وهو يلمس رقبتها أكثر من مرة وهى تبتعد هاربة منه أو من نفسها كان يقول لها: «على فكرة يجب ان تتخلصى من غدتك الدرقية لأنها فى حالة سيئة ثم نظر إليها نظرة ذات معنى وهو يكمل: «بعد سن معينة يجب ان تتخلص المرأة من هذه الغدة».

لم تفتها اشارته إلى عمرها فانتفضت راجعة وهى تقول: «ليس لك بى أو برقبتى شأن. لقد وصلت إلى قرار لا رجعة فيه» ورغم كل هذا كان داخلها أمل أخير أن تنهى علاقتها به ولكن يظلان أصدقاء وكان هذا أيضاً منطق عمرها وخبرتها فهدأ صوتها وهى تقول: «أنا آسفة جداً يافايز على كل ما حدث بيننا كانت لحظة خروج عن عقلى وإرادتى

ولكنى لن أستطيع أن أستمر معك هذا أكثر من احتمالى... وأنت لك كل الحق فيما فعلت، قاطعها وهو يشيح بيده: «أوه سترجع لنغمة العمر وأنا أكبر منك ثم سكت فجأة وهو يزيح أحد الصناديق برجله ليقول: «إذا كنت حقا تحسين بحقيقة فارق العمر بيننا فلماذا لم تعطنى قليلا من الحرية أم أنك تريدين أن تستعبدينى، قبل أن تجيب كان يضيف وقد تسيدت معانى القرف والاشمئزاز على وجهه: «على الأقل كان من واجبك أن تكملى العيادة كما اتفقنا ولكنك أنانية ومتسلطة، عند هذا الحد وشعرت بقدر لايستهان به من الإحساس بالظلم... لا... لا تريد أن تسمع سلسلة من الإهانات اكثر من ذلك تمنت أن يختفى من أمامها قبل أن يمتهنها أكثر... وعند الباب أطال النظر إليها ولكم أحبت عينيه ودون أن تدرى وكأن دافعا يدفعها كانت تربت على كتفه ومازالا على عتبة الباب وهى تقول: معلش يافايز لن أستطيع أن أكمل العياده هذا أكثر من احتمالى... المعلم «جمعه» يستطيع أن يكملها فالباقى قليل جداً، رأى فى عينيها الإصرار فوضع الصندوق الذى بين يديه على الأرض وهو يقول لها: «على العموم ياباشمهندسة خدى بالك من نفسك لأنك غلبانة قوى وبخيلة قوى» صفقت الباب خلفه وارتمت على الكنبة فى الصالة وقد آلمتها عبارته «إنت بخيله قوى» فماذا كان ينتظر هو وأهله أكثر مما عملت وانخرطت فى بكاء مسموع مر.

أطوار للحب!!

تفحصته بلباقة شديدة من وجهه حتى قدميه ولاحظت أن وزنه قد ازداد اكثر من عشرة كيلوات... وهذه الزيادة قضت على دقة ملامح وجهه الشاحب وعلى نحول خصره وهو الذى كان منحوت الخصر وكان هذا التكوين الخلقى يعطيه الكثير من الجاذبية التى تأتى بالتدقيق ورغم أن الشكل الخارجى فى كثير من الأحوال لا ينبئ عن حقيقة الإنسان إلا أن تكوينه السابق النحيف كان يملأ نفسها بالاقتناع به وبكثير مما يقول عن الحب.. وعن السياسة.. وعن حال العرب.. كان ممن ذاق السجن وهو طالب لآرائه الثورية رغم أن كلمة ثورية فقط لا تصفه فقد كان مزيجاً من اليسارية والاشتراكية والثورية. ولكن ما الفرق بين اليسارية والاشتراكية؟ فى الحقيقة لم تسأله يوماً عن هذا الفارق! ولكنه سرعان ما سيطر على جماع نفسه ولملمها وعاد لينتظم فى دراسته إلى أن

إنتـهى منهـا ولـم يبق من ثوريتـه إلا تلك الرغبـة العظيمـة التى تمـوج داخله عن حب المحـامـاة والرغبـة الدائمـة فى الدفـاع عن المظلومـين والمظلومين مـن وجـهة نـظره لهم مـواصـفـات معينة ومقاييس مـختـارة حتى يعتبرهم من المظلومين!! فإذا حكت له عن بعض زملائها ممن فى سلك المحـامـاة ومدى الظلومة أو الصعوبة الواقعين فيها فكان ينظر إليها متعجباً ورافضاً إعتبارهم يعانون بأى حال من الأحوال!! فتأخر الترقية أو النقل التعسفى أو ضياع الحقوق المادية والأدبية لا يُعتبر أصحابها من المظاليم... نظرته للأمور غير عادية وربما غير سوية... دومـا يرى الآخرين قد نالوا أكثر ممـا يستحقون وأكثر ممـا يساوون وخاصة المحامين الناجحين، دوما يبحث لهم عن أسباب أخرى للنجاح غير الكفاءة الشخصية... يقدر أو يُقَيِمْ المحامى من خلال مذكرة الدفاع التى يكتبها.. له هواية غريبه هى أن يذهب بنفسه للمحاكم ويعطى لشخص ما مبلغاً ليلتقط له صورة من مذكرة القضية التى يُعينُها وكلما كانت المذكرة تسبر الغور كما يقول يمتلئ إعجاباً بالمحامى وكلما كانت مذكره الدفاع قصيرة مختصرة كان ثائراً حتى لو أوصلت المحامى إلى أن يفوز بالبراءة لموكله!! تركته جالساً وراحت تعد الشاى وعادت بالصينية عليها كوبان بينهما طبق حلوى كانت تعرف أنه سيرفض أن يتذوق منه شيئاً فهو يعتبر الرفض نوعا من الثورية والإعلان الصريح على أن مسألة أن يُقدم له شىء لا تقدمْ ولا تؤخر!! فعادت تتفحصه من جديد بلباقتها المحسوبة وهى تقرر لنفسها أنه لم يكن فى يوم من الأيام صاحب شعر غزير كان دوماً أصلع إلا أن هذه المرة الأبيض غزا رأسه وهى تحب الشعر الابيض فى رأس الرجال ولكن لماذا لم يتماش مع

ملامحه؟ ربما لشدة شحوبه حتى أن شفتيه المنمقتين تميلان إلى أن تشوبهما زرقة من شدة شحوبه ابتسامته هى الشىء الوحيد الذى بقى بريقه، تزين خدة شامة بنية داكنة.. ورغم أن هذا الوصف لا يوحى بالجمال الا أن هذه المواصفات بعينها كانت تجعل منه رجلاً له جاذبية محسوسة فى كثير من الأحوال وفى نظرها على الأقل فى البداية لاحظت أنه لم يدقق فيها لا بلباقة ولا بعلانية اللهم إلا أنه كان كثير التحديق فى حذائها فسوت قدميها بجوار بعضهما ثم وضعت ساقا فوق ساق فابتسم وهو يقول: «جمالك لم يتغير أنت أنت. من يقول إننا لم نر بعضنا من أكثر من عشر سنوات رغم أننا نسكن فى حىّ واحد! حقيقى أنت تسكنين فى الجانب المضئ من الحىّ وأنا أسكن فى الجانب المعتم منه فى «عزبه الكبش» ولكننا أبناء ضاحية واحدة» ابتسمت هى الأخرى مثل هذه العبارات التى يطفح منها المقارنات والأغراض المستترة كانت من عشر سنوات تهزها فترد عليه وهى فى قمة الانفعال «وما الفرق بين الحىّ المضىء والحىّ الآخر المهم دخيلة الإنسان ومدى صفائه» لقد كانت فعلاً تقدره منذ أن كانا فى الجامعة.. كانت فى سنتها الأولى وهو المدرس حديث التعيين الذى يشرح لهم كل مايغمض عليهم بطريقة سهلة مبسطة لقد تفوق على أستاذ المادة.. يقف هنا ويقف هناك تلتف حوله الطالبات بعشرات الاسئلة لا يكلْ ولا يملْ ومع هذا اختار أن يكون محامياً حراً وليس أستاذاً جامعياً.. لم يكن يختلف معها إلا إذا حكت له أى موضوع وتعاطفت فيه مع أى جانب هنا يظهر رفضه الفورى والدائم معها ومع غيرها فالمظلوم من وجهة نظره والذى يستحق التعاطف كأنه لم يخلق بعد! فكانت تسأله: «إذن لماذا

اخترت المحاماة وعن أى نوع من المظلومين سوف تدافع؟!، فكان يقول بملء شدقيه: «عن المقهورين تحت وطأه الأقدار... ها... ها... غداً سوف تسمعين عن «فوزى الحنت» المحامى.

ولما تخرجت هى الأخرى وعملت بالمحاماة كانت كثيراً ما تستشيره فى مذكرة دفاعها... وكثيراً ما وجهها وكان له الفضل فى أنها انتزعت الحكم بالبراءة اكثر من مرة من أنياب المحكمة وهو دوماً يدربها كيف تنظر إلى القضية ككل بأكثر من بعد وأكثر من منظور اذ به يعترف لها بأنه أحبها وأنه وصل إلى الدرجة التى يستطيع فيها أن يضحى بزوجته أم ولديه ليبقى عند قدميها ورهن إشارتها ليخلق منها أشهر محامية عرفتها المحاكم المصرية منذ أن وجدت... سيضع كل إمكاناته وفهمه وعبقريته التى تعرفها فى خدمتها ومن أجلها هى فقط... سيتفرغ لها تفرغ العابد... وهى تعرف قيمته وكفاءته بل وشديدة الأعجاب به وبطريقته تتابعه منذ كانت طالبة وتؤمن بوجهات نظره... إذن ماذا بقى؟ وكان الباقى كثيراً جداً فقد كانت ببساطة متزوجة والأكثر من هذا أنها كانت تحب زوجها بصدق فهو الذى أعطاها تلك المساحة من الحرية لتدرس وتتعلم وتختلط وتسأل لم يحاول مرة أن يذكرها بطلباته وواجباتها نحوه بل وحتمية تفرغها له حتى على أقل القليل وهو فى المنزل... كان زوجها جراحاً ورغم الجهد الذى يبذله إلا أنه لم يحاول أن يقتص من وقتها من أجل نفسه وهكذا احتل حبه وتقديرها له من قلبها بينما الأستاذ «فوزى الحنت» مستمراً فى مطالبتها بتبادل الحب وسحق الأقدار التى يعاديها بل وإسقاطها من حساباتها!!! لأنه أحبها ولأنه الأستاذ الذى سيسوق التلميذة إلى النجاح

والمجد.. ولم تقبل عرضه بالزواج... ولم تقبل عرضه بالحب لأنها تعرف القانون فلا عذر لها... كانت وقتها غارقة فى بحث إحدى القضايا وجهزت مذكرة دفاعها وعرضتها عليه إلا أنه نحى المذكرة جانبا واقترب منها يمد ذراعيه ليحتويها أكثر من مره فكانت تنفلت منه وتتركه داخلة المطبخ لتعد الشاى مرة والمشروب البارد مرة أخرى وتعود اليه آملة أن يكون قد فهم... ولماذا لا يفهم وهو الذى كثيراً ما كلمها عن حق المرأة فى حريتها وضرورة تقدير اختيارها... ما الذى بقىّ لم تقله له عن حياتها وزوجها؟!!

مرة أخرى طوقها من خصرها وجذبها إليه وجدت نفسها بين ذراعيه أنفه قريب من إنسان عينها.. لاحظت الشامة الداكنة التى تزين صدغه وامتلأ صدرها برائحة تبغ فمه.. فى عينيه رجاء الدنيا فتسمرت باردة كأنها بلا روح رفع يده وتحسس شعرها الطويل فاستمرت على وقفتها المتصلبة ثم بمنتهى التؤدة والهدوء التفتت ثم ابتعدت عنه.. لملم شتات نفسه ومد يده إلى المائدة القريبة وتناول المذكرة التى أعدتها وهو يطلب منها أن تعطيه يومين ليدرسها ويعود لها بالرأى ثم انصرف من أمامها.

كل هذا مر من أمام عينها وهى تجلس فى مواجهته بعد أكثر من عشر سنوات ثم تسترجع وتتذكر مرة أخرى أنه أعطاها المذكرة بعد يومين كما وعدها مذكرة كتبها هو وقال لها بأنه مزق مذكرتها لأن «لا ضرورة لها الآن» أخذتها منه فرحة.. كلها ثقة فهو الأستاذ وهى التلميذة شديدة الاقتناع به وسارت الأمور بعد ذلك إلى أن خسرت

القضية تماماً وكان وقع هذا فى نقابة المحامين مسموعاً له دوى فقد اتهمها زملاؤها بأنها نسيت البديهيات وألف باء المحاماة و... و... و... وتقلب تفكيرها مرات وتدرج حدسها ووجدت نفسها يوماً وجهاً لوجه أمام حقيقة مؤكدة بأن الأستاذ خدع تلميذته عندما استعصت عليه... حقيقة لا مهرب منها ولا ثانى لها... وحدثت قطيعة بينهما عللتها هى بالمشاكل اليومية ومرض الزوج والبنات اللاتى أصبحن فى مفترق الطرق و... و... و... ولم تهدأ عن لوم نفسها وهى تؤكد أنه كان من البصيرة أن تتوقف عن استشارته مادام قد وضع للاستشارة هذا الثمن الذى رفضته بكل أشكاله... وطأة خسارة القضية بتلك السذاجة التى لامها عليها زملاؤها وألم الندم الذى تملكها جعلها تُغلق مكتبها «بالضبة والمفتاح».. إبتعدت جذريا عن ممارسة مهنتها وإن ظلت تحب هذه المهنة بكل كيانها...

وتجرى الأيام تترى ودوماً هى كفيلة برأب الصدع. للزمن يد حانية فى كثير من الأحوال يتحسس بها موطن الألم أو مكمن المراره وينتزعها ويغسل مكانها فيعود الانسان إلى حالته الأولى كانت السنين التى تركت فيها العمل كافية لتنسيها... وفى لحظة أخرى صحت ربما تحت إلحاح زوجها... ربما مع دخول إحدى بناتها كلية الحقوق فتشجعت وفتحت مكتبها من جديد ووضعت أملها فى قضية ما شحذت لها كفاءتها الحبيسة لأنها ستستعيد بها اسمها مره أخرى فى عالم المحاماة الواسع... وكتبت المذكرة أكثر من مرة ثم نقحتها مرات وفجأة برز لها من خلال الصفحات وجه «فوزى الحنت» وتساءلت لماذا تتصل به وهو الذى خدعها وأعطاها رأياً مغلوطاً ومذكرة تفتقر إلى ألف

باء المحاماة؟ وهى بالطبع لم تواجهه بهذا وبالتالى لم يكن هناك اتهام محدد من جانبها يحاول فيه الدفاع عن نفسه... لقد شربت المقلب فى صمت وهو فعل هذا بعد أن يئس منها واستعصت عليه إن فعلته متدنية بكل المقاييس... أيناه الآن؟ هل مازال يسكن نفس الحىّ؟ لقد أصبح محامياً اسمه على كل لسان كما كان يتنبأ ويقول: «سيأتى اليوم الذى ستعرفون فيه من هو «فوزى الحنت» وألحت عليها صورته... إنها لاتثق فيه مطلقاً ولن تعود ثقتها مرة أخرى ولكنها تريد أن تراه!! هل مازال يحبها وهل لمثله دوام فى المشاعر؟ ولكن لماذا تريد أن تعرف درجة مشاعره وهى التى رفضت منه كل شئ؟.. انكبابها على كتابة المذكرة وعبق مكتبها.. رائحة الكتب والمراجع... مذاق المكان الأثير لديها ودفع زوجها المستمر... حين أمسكت القلم بعد كل هذه السنوات وكتبت المذكره عرفت فداحة تركها لمهنة كانت دوما تتعشقها منذ صغرها وربما عامل الوراثة كان له دخل فى هذا فهى ابنة القاضى وإحدى حفيدات قاضى قضاة مصر فى ذلك الزمن البعيد... شئ ما غامض ومحير يدفعها دفعاً إلى أن تكلمه وتحاول أن تلقاه... لتعطيه المذكرة وتأخذ رأيه!

وضعت يدها على الهاتف وكانت تتواصل معه.. لم يتغير فيه شىء وإن بدا صوته أجش كأنه كبر ضعف العشر سنوات المنصرمة وأتاها مهرولاً وهو عن يقين أنها لم تفهم ما عمله فى مذكرتها القديمة وإلا لما طلبته مرة أخرى وهو من جانبه لم يحاول الاتصال بها مرة واحده طيلة السنوات الماضية.

... ...

أطال التحديق فى حذائها فوضعت قدميها بجوار بعضهما بانتظام فأعاد التحديق فوضعت ساقاً على ساق وخرجت من حلقه بلا تفكير عبارة: أنت جميلة كما أنت لم يتغير فيك شئ، نظرت إليه... رغم شهرته إلا أنه لا أثر للفرحة أو القناعة على وجهه هو... هو بثورته الداكنة التى تموج فى دخيلته والوزن الثقيل أفقده رشاقته ومعها مصداقيته. لماذا؟ لاتدرى ولكن هذا ما تشعر به نحوه ومازال يحلق فى حذائها ثم بكل جسارة نظر إليها وهو يسأل بلا لحظة تردد: «ألم توافقى بعد؟ أم أنك مازلت على رأيك القديم؟ ابتسمت فتشجع وهو يقول لها: «مستعد أن أركع عند قدميك فأنت لم تتغيرى» ضحكت بحساب وهى تهمس: «فعلا أنا لم أتغير» وفجأة كومضة برق التفتت إلى نفسها... غاصت داخل أعماقها وإن بقيت شاخصة اليه... وتساءلت هل تغير «فوزى الحنت» وكانت إجابتها بنعم لقد كبر بل شاخ أكثر مما كبر بعمر السنين... أرادت أن تعرف هل مازال على ثورته السابقة فأكد لها أكثر من مرة أنه مازال على خصامه وثورته مع القدر... ذلك القاسى الذى يسلبنا أحلى ما نملك.. يسلبنا الحرية.. القدر الذى يضعك على بعد منى لأنك تؤمنين به... أنا لا أحس القدر كما يفهمه الناس يتحججون به ليقبلوا ويستكينوا إلى أوضاع من اختلاقهم أو ورثوها! نظرت إليه وهى تعى بأن العشر سنوات فارق لا يستهان به من عمر الانسان... هو الآن أصبح كهلاً فقد الكثير من قوة الاقناع التى كان يملكها.. أو لعلها هى التى تغيرت!!! إنه الآن لا يساوى اكثر من كهل عجوز... ثم انتبهت إلى نفسها فانتفضت من جلستها واقفة فنظر اليها بحدة وتصور أنها تنهى اللقاء... يتوقع منها دائما أفعالاً تطفح منها

الفروق الطبقية... يتوقع منها دوماً عنجهية لمجرد أنها تسكن الجانب المضيئ من الحيّ كما يسميه فقام واقفاً هو الآخر كأنه يسبقها إلى فكرة إنهاء المقابلة الا أنها خيبت توقعه وعلى العكس تماماً اقتربت منه وشدت ذراعه ووضعتها حول خصرها... اندهش فاقتربت منه اكثر والتصقت به أقرب بعد ثانية واحده ابتعد مذعوراً فتمسكت بالاقتراب فابتعد خطوتين ناحية باب الخروج وهو يلهث عجوز يلهث.. كهل يلتقط أنفاسه بصعوبة... ثوان بعينها أثبتت له فيها أنه غير قادر... جرجر رجليه الى باب الخروج بإصرار ففتحت الباب ودلف خارجاً... ارتمت عليه تشده فلم يستجب.. كان كل همه الخروج وهى تمعن فى إشعاره بالخسارة وأخيراً رحمته وأغلقت الباب خلفه واستندت عليه.. لحظة نشوة إنتابتها وهى تقرر بأن رد الصاع يجعل للحياة طعما وتساءلت: «لماذ انتظرت أكثر من عشر سنوات»؟ إذ سمعت صوت عربة تعوى مصطدمة بجسم... كان كل شئ واضحاً فى قاع مخيلتها.. لقد دهمته عربة وهو يمرق غير واعٍ لما حوله. ولكنها بقيت مشغولة العقل هل تدافع عن صاحب العربة أم عن «فوزى الحنت» المحامى فى هذه القضية؟.



الرزق

في الإجتماع الأسبوعى للجريدة مع رئيس التحرير انحنى الأستاذ «سيد» بعد أن سلم على رئيس التحرير وقبل يده... أثار استياء وتعجب الزملاء الصحفيين كلهم ولكن الفرحة كانت فى داخله أكبر من احتماله. لقد أعطاه الرئيس صفحة أسبوعية كاملة ليحررها وفوق هذا نبه على التقليل من الإعلانات ما أمكن انصرف الصحفيون كل إلى عمله والأستاذ «سيد» الدنيا لاتسعه فكان يرفع صوته يطلب من الجميع أن يشربوا القهوة أو الينسون على حسابه اليوم.. الذى لاشك فيه أن لديه كفاءة على كتابة المقالات العلمية يبسطها ويعرب مصطلحاتها كأمهر ما يكون ورغم هذا تحس أنه ليس فى مكانه! ولكن مع كل اجتماع يحصل على حقوق ومزايا ليكون عمله دائما ضمن صلب الجريدة ويأخذ المكان اللائق... تزوج حديثاً إلا أنه مع هذا الزواج تدهور شكل مظهره العام إلى درجة

كبيرة... كان الجميع يلتمسون له العذر أيام أن كان أعزباً فلا يهم أن يأتى بالقميص دون أزرار وإن كانت موجودة فهى مخيطة باللون الأسود أو الأحمر والقميص نفسه أبيض اللون... أما بعد أن تزوج وقد توقع له زملاءه أن يبدو أكثر ترتيبا فهذا ما لم يحدث فزوجته التى اختارها يبدو أنها ريفية وأن مسألة أناقة المظهر لا تأخذ من تفكيرها الكثير.. ومع السنين ساء مظهره إلى درجة كبيرة.. بل إلى درجة كانت تثير النكات والقفشات بين الزملاء والزميلات فرباط عنقه استهلك ونظارته لم يغيرها من سنوات ولما ازداد وزنه بحكم السن أو لعله بحكم الأكل المنتظم من زوجته لم يخطر على باله أن يشترى ملابس جديدة.. فكان يلبس البذلة مثلا ولا يمكنه أن يغلق أزرارها لشدة ضيقها عليه... حتى الحقيبة التى يمسكها فى يده والتى بها مقالاته أصبحت فى حالة رثة من القدم وإذا فتحها تجدها أقرب إلى سلة المهملات عن أنها تكون حقيبة .ينكفئ على عمله فى جدية وإخلاص يأتى من الصباح ولا يعود إلى بيته إلا بعد منتصف الليل ليستأنف الكتابة والإعادة مرة ومرات واعتاد الزملاء على جوار الأستاذ سيد بكفاءته النادرة وطيبة قلبه وسوء مظره الذريع وأيضا عفوية تصرفاته وتعليقاته بل والأكثر من هذا أن مكتبه كان بمثابة المكان الذى يرتاحون فيه ويركنون إليه فى كثير من أوقاتهم والكل يحكى عن متاعب العمل أو مغامرات العمل والتى تحفل بها حياة الصحفيين.. حتى الصحفيات كن يأنسن إليه فيتكلمن حتى فى الخصوصيات معه وربما ما شجعهن على ذلك مظهره الذى يعطى أكبر من سنه الحقيقى وقد زاد وزنه الآن واندلق الكرش أمامه بصورة واضحة تفتق فتحات

القميص بين أزراره المشكلة بخيوطها الملونة ولم يعد أحد يسأل عن دور زوجته فى حاله هذا.. يتوقف عن العمل وهن موجودات ويستمع إلى واحدة.. واحدة فيهن أو يسمع تحاورهن إذا كن أكثر من واحدة وغالبا ما يتعاطف معهن.. وهو يستمع يمتزج فى وجهه حياء ممزوج بنوع من الشجن فيسدل جفنيه تحت نظارته السميكة.. كثيرا ما تمنى.. مجرد أمنية أن تعجب إحداهن به صحيح أن الصحفيات على درجة راقية من الأناقة التى تصل إلى حد الإبهار فى بعض الأحيان ولكن وقت المعجزات لم ينته... وآه ياواد ياسيد لو حدث هذا لتغير مظهرى بل تغيرت حياتى كلها.. إن الحب يخلق المستحيل.. وهل مثلى يمكن أن يعيش قصة حب.. لأ.. لأ.. ياواد ياسيد قول لحظات حب فقط.. أو بكثيره إعجاب.. آه لخلقت منى إنسانا آخر. لقد كان يشعر من داخله بسوء مظهره.. ولكن لماذا لم يحاول أن يغيره.. ربما القراءة والاطلاع على المراجع بجميع لغات الأرض هو ما حال دون ذلك.

وترددت عليه أكثر من مرة امرأة ما لعلها تطلب خدمة أو تساعده بالمراجع فى الإعداد لكتابة مقال بعينه.. ولكن كان الملاحظ عليه ما أن تدخل هذه المرأة حتى تعلو الحمرة وجهه وأذنيه وكأن الروح ردت له وفى يوم على غير عادته جاء متأخراً إلى مكتبه والظاهر أنه قد بذل مجهوداً ما فى مظهره وكانت عينه تلمح ساعة يده أكثر من مرة فى هذا الوقت دخل عليه أحد أصدقائه من خارج الجريدة إنه الدكتور «عبدالباقى مدكور» الذى أتى لتوه من أحد البلاد العربية التى يعمل بها.. هبط عليه فى تلك الساعة وتزامن دخوله مع دخول المرأة.. وبعد السلامات والتحيات أفهمه بطريقة خفية أنه سيصل إلى مشوار قريب

مع المرأة فأصر صديقه أن يدعوهما للعشاء ورحبت المرأة بالفكرة أيما ترحـيب.. وهم يغادرون المكتب مال على صـديقه وهو يقول ملتـاعاً: «يعنى فى اليوم اللى رزقنى الله فيه بواحدة تأتى معى».

شبح

رجل ينحنى على شباك عربة يقدم علبة الورق بذراع والذراع الأخرى تحمل مالا يقل عن عشر علب ورق أخرى.. لمحته فكانت تفتح حقيبتها فوراً وقدمها على «كابح» العربة الثوب قصير يكشف عن مابعد ركبتيها.. بكف واحدة كانت تفتح الحقيبة والكف الأخرى تحاول أن تشد بها الثوب تخفى بداية فخذيها قبل أن يصل إليها. فلابد أنه آت ناحيتها ما أن يلمحها فى هذا المكان السفارة الأمريكية عن يمينها والسفارة البريطانية عن يسارها إلا ويجيئها مسرعاً.. يمد يده بعلبة الورق تأخذها أو لا تأخذها فتناوله جنهين أو ثلاثة وتسرع تاركة إياه قبل أن تسمع منه أى كلمة.. أكثر من سنة وهى تراه كل يوم فى ذهابها إلى عملها كل صباح ثم تكمل مشوارها إلى وزارة الخارجية.. فى عودتها تسلك طريقا آخر لا تراه فيه.. واليوم تراه بعد غيبة طويلة.

أكثر من أسبوعين لم تلمح ظهره منحنى على عربة أمامها أو بجوارها قبل أن يصل إليها.. لا تدرى لماذا فرحت حين رأته وفتحت حقيبتها ولم تجد إلا عشرات الجنيهات بجوار بعضها.. لا يهم... وناولته ورقة.. قبل أن يبحث عن باق لها كانت تطلع بعربتها.. رجل مسن وله كل هذا الدأب على الاستمرار اليومى فى بيع علب الورق.. تراه له أسرة.. أو لعله له زوجة مسنة مثله.. وربما يربى أولادا له فى الجامعة فهذا الدأب الذى لا يفتر لابد أن وراءه حافزا كبيرا وربما حافز عظيم.. وكثيراً ما فكرت هل يأتى ليبيع يوم الجمعة أيضا وهو يوم أجازتها؟ أم أنه هو الآخر يأخذ هذا اليوم أجازة؟ لم يأخذ من فكرها إلا هذه الثوانى وذهبت إلى عملها ولكن منذ يوم العشرة جنيهات وتغير سلوكه معها فكان يجيئ إليها ثم يلقى لها بعلبة الورق ويختفى قبل أن تعطيه شيئا قبل أن ترفع وجهها عن حقيبتها إلا وتجده قد اختفى لا تلمح له أثراً ثم تفتح الإشارة والعربات من خلفها تستعجلها وتزعق... والعسكر الذين يقفون فى هذا المكان بين السفارتين يشيرون لها أن تتقدم.. فكرت مرة أن تترك له النقود مع أحد العسكر ولكنها تأكدت أنها لن تصل إليه فتقدمت بعربتها وهى تلمح الكرسى من جانبها وقد امتلأ بثلاث أو أربع علب من الأمس وقبل الأمس... نوت أن تغلق الشباك من جانبها فى الغد حتى لا يلقى لها شيئا.. وسرقها الوقت فى عملها بين الأجراس والخطابات والفاكسات.. تأخرت عن موعد خروجها أكثر من ساعة كاملة إلى أن انتهت من كل تلك الأوراق.. زميلتها «حنان» ستركب معها لأن عربتها فى التصليح وهما يسكنان فى عمارة واحدة نزلا سويا وما أن ركبت عربتها «وحنان» تدور لتفتح الباب من الناحية الأخرى إلا

ووجدته بهيئته الجلابية وفوقها البالطو الرمادى ينحنى على شباكها يحمل على ذراعه «رصة» من علب الورق.. كادت ألا تعرفه فكثير من الناس لا نعرفهم إلا فى أماكن عملهم.. ثم استدركت وقد تذكرته.. قدم لها علبة ورق وقبل أن تنطق بكلمة واحدة كان يحدق فيها.. فنظرت إليه.. فى عينيه نظرة غريبة.. ليس مجرد بائع الورق الذى تراه يوميا ولمدة تزيد عن السنة ولكن أصبح فى عينيه نظرة ساهمة يطيل بها النظر إليها.. هل تكذب نفسها.. ما هذه النظرة! وماذا تعنى!... ركبت «حنان» بجوارها وضغطت على البنزين فلم ينس أن يلقى بالعلبة على رجليها... كلمت «حنان» وهى تتعجب من تصرفه وحكت لها أنها أعطته عشرة جنيهات... قالت لها أيضا إنه ولابد لديه نوع من الالتزامات التى تدفع رجلا فى مثل هذا العمر إلى هذا العمل اليومى... من بين ضحكات «حنان» تبينت بعض ما قصدت أن توصله لها بأن هناك خيطا رفيعا بين الحب والشفقة كثيرا مالا يستطيع الناس أن يتبينوا هذا الفارق الدقيق.. والأكثر من هذا أنها حذرتها...

وفى حجرتها كانت تستعيد نظرته إليها فى عينيه شيئ لا يمكن إنكاره نظرة ساهمة مثل نظرة العشاق... شعرت بالغثيان وهى تتصور أنه يمكن أن يكون لهذا العجوز الرث الملابس عاطفة نحوها.. إنه الجنون بعينه.. ولكن ماذا تفعل لو أن هذا صحيح.. إن المجانين لا يحاسبون وشعرت بنوع من الخوف واقشعر بدنها من مجرد عبور هذا الخاطر فيه.. كيف له أن يفكر فى هذا وقد كان إحساسها نحوه مجرد نوع من أنواع الشفقة والتقدير لما يعانيه... صديقتها «حنان» قالت إنه هنا على هذا الرصيف بين السفارتين منذ أكثر من عشر سنوات كما أنه لا يقوى

على النطق بكلمة واحدة.. نبهتها إلى أنه يوجد فى صدره عند بداية رقبته ثقب به صفارة بلاستيك يتكلم منها. فهو بلا صوت أيقنت لماذا لم يرد عليها بكلمة واحدة طوال العام.

وفى اليوم التالى.. فى نفس المكان أوقفتها إشارة المرور وجاء إليها مهرولا يقدم العلبة فقالت بتأكيد أنها لا تريدها.. فنظر إليها نفس تلك النظرة الساهمة فحدقت فيه وهى تكرر أنها لاتريد شيئا.. حاول أن يقول كلاما ولكن لا صوت له فقالت بنوع من القسوة بأنه ليس لديها «فكة» فحاول ثانية وثالثة أن يقول أى كلام فلم تسمع أو تفهم شيئا وإن لمحت الثقب الذى فى أول رقبته ثم هالها أن تجد عبرة واحدة تسقط من عينيه على وجهه. صدقت نبوءة «حنان» ها هو يستعطفها.. والنظرة اللينة الساهمة فى عينيه.. ماذا تفعل.. الدم ينضخ فى رأسها تناولت منه علبة الورق وألقتها فى لمح البرق من نافذة العربة وضغطت بقوتها على دواسة البنزين فاندفعت العربة وهى تزيحه من جانبه فوقعت العلب منه على الأرض ومن المرآة الأمامية كانت تراه منكفئاً يلملم علب الورق.

الزوج

بصوت مبحوح.. تخنقه العبرات كانت «سلوى» تسأل عن صديقتها بالتليفون.. تطلب أن تراها فوراً لأمر هام. قبل أن تكمل كلماتها الملتاعة كانت الصديقة تعرف مقصدها! دقائق وستأتي مهرولة بالقميص وفوقه الروب وشعرها مشوش... وما توقعته حدث بالضبط.. إستقبلتها وعلى الكنبة التى تحتل الممر الذى يفصل بين حجرة نومها والصالون كانت «سلوى» تجلس منهارة تروى لها عن علاقة زوجها الطبيب «أحمد محسن» بممرضته.. «تلك الخائنة التى تسمى فوزية والتى أطعمها بيدى وأكسوها ولا أرفض لها مطلباً».. إن صديقتها «سلوى» تشك دوما بعلاقة ما بين زوجها الطبيب وهذه الممرضة التى تعمل عندهم منذ أكثر من عشر سنوات حتى أنها فى يوم أجازتها تأتيها لتنظف وتغسل الثلاجة وتعيد ترتيب الأشياء فيها. ولما سألتها عن دليلها قالت لها بأن

زوجها يطلب من هذه الممرضة وبإصرار أن تدلك له ظهره ورجليه فى كل مرة تأتى إليهم وأنه لا يستجيب لكلماتها بأن هذا لا يليق ولا تقبله بالمرة والأكثر من هذا أن إبنتها تشاركها الرأى هى الأخرى وقد وجهت نوعا من اللوم المستتر إلى أبيها فى مسألة طلبه الغريب منها بتدليك ظهره ورجليه... طيبت خاطرها ومسحت دموعها وهى تنفى تماما عن زوج صديقتها أى شئ «وإن بعض الظن إثم ياسلوى» وفى يوم زارها الدكتور «أحمد محسن» كعادته وتجرأت وفاتحته فى هذا الموضوع وطلبت منه بوضوح أن يكف عن هذا الطلب من الممرضة مادام يقلق «سلوى» إلى هذا الحد.. ومادام ليس من وراء هذا المطلب غرض ما «لا سمح الله».. إلا أن الدكتور دافع عن نفسه من البداية بأن قال لها إن زوجته «سلوى» دائما ما تتهمه طوال فترة زواجهما معا إما فى الممرضة أو فى أى خادمة تأتيهم حتى وصل بها الأمر إلى أنها فى مرة اتهمته مع بائعة الكشك الموجود أمام بيتهم لأنه يصر على أن يشترى سجائره وأمواس حلاقته منها رغم أنها لا تملك حتى هذا الكشك ولا تزيد عن عاملة تبيع فيه فترة الصباح حيث يكون صاحب الكشك مشغولا فى وظيفته.. لم تحاول الصديقة أن تسمع دفاعه بالمرة لأنها تريد أن تحدد كلامها فى موضوع واحد وهو الممرضة «فوزية» ومايطلبه منها... ولما لم تستجب إلى حكاويه الجديدة علا صوته وتسرب العرق من جبهته وهو يحكى لها مرة أخرى بأن زوجته «سلوى» لم يكفها ما كان منها إنما من شهر واحد مضى كانت تعترضه شابة تبيع علب الورق التى توضع فى العربة بغرض الاستخدام فكان يقصد إذا ما احتاج لعلبة أن ينتظر إلى أن يجدها فى طريقه ويشتريها

منها.. فما كان من زوجته إلا أن اتهمته فيها هى الأخرى.. فهذه طريقتها على الدوام. ولكن ما يثيره فعلاً أنها تتخذ نساء من طبقة معينة لتشك فيهن... و... و... وهو يتكلم شردت بذهنها بعيدة عنه... إن الدكتور «أحمد محسن» زوج صديقتها معروف بينهم بأنه ليس فوق الشبهات فدائما ما يسافر سفرات قصيرة إلى الخارج القريب اليونان أوإيطاليا وتكون فى صحبته فى كل مرة امرأة!! تعرف هذا من أخيها فهو صاحب شركة سياحية والتى يشترى منها الدكتور فى كل مرة تذكرة له وأخرى لمن ستصاحبه فى الرحلة! ولكن زوجته لا تدرى عن هذه الرحلات شيئا وتتوقع فى كل مرة أن تكلمها باكية أو تأتى مشوشة ولكن لا شئ من كل هذا يحدث طوال فترة سفره سواء طالت إلى عشرة أيام أم قصرت إلى يومين فقط «فلا حس ولا خبر».

مازال الدكتور «أحمد محسن» يتكلم وهى أمامه لا تسمع شيئا منه على الإطلاق ترى فمه يفتح ويغلق ويشير بيديه يميناً ويساراً وتذكرت أنه نفسه كثيراً ما خرج عن حدود المألوف معها وأمام زوجته كثيراً ما غازلها وكان هذا فى آخر مرة قبل أن ينقضى الصيف وكانوا جميعاً فى العربة وطوال مدة قيادته كان يمد يده إلى الخلف ويداعب قدمها حتى أنها صرخت مرة وهى تقول لسلوى «إبعدى عنى زوجك فهو يتحسس خلخال قدمى» فما كان منها إلا أن ضحكت واعتبرت الأمر مجرد دعابة.. الدكتور «أحمد محسن» كثيرا ما يسلك هذا السلوك مع باقى صديقات زوجته إما بالكلام أو تقبيل اليد أو حتى تقبيل الشعر ولابد أن يكون هذا فى حضرة زوجته والزوجة تأخذ المسألة بمنتهى البساطة «إنه يحب المداعبات.. وهو حسن النية.. يعاملكن كأخوات له».

الدكتور «أحمد محسن» مازال يتكلم ولكنها أفاقت من سرحتها وهو يهزها من كتفها قائلا: «إن سلوى تنظر إلى بدونية فيبدو أننى من وجهة نظرها لا أستحق إلا الخادمات أو بائعات الطريق المشردات إنها تهيننى باتهامها إياى مع تلك النوعية بالذات ولا أدرى لماذا.. هل أنا صغير فى نظرها إلى هذا الحد. أم أننى لا أستحق أكثر من هذا... وعند هذه الكلمات عرفت صديقتها حقيقة وسبب تعدد علاقاته وسفراته الدائمة.. إنه يؤلمه التقليل من شخصه واتهامه بدونية تشعره بأنها تحقر من شأنه فكان الانتقام الوحيد الذى استطاعه ربما دون أن يدرى ولكن من داخله يجد نفسه مدفوعا إلى أن يسرق منها شيئا يغتصب حقوقها ويعطيها لأخريات فى سفرات طالت أم قصرت إلى الخارج ثم يعود.

جمالات

همس

الرائد «وحيد مهران» وهو يقول: «لو لم تكن هذه الفتاة خادمة عند سيادتك بالذات لتزوجتها» وتصلب مكانه مبهوراً بينما الخادمة تسحب باب الحجرة وراءها.. لها أكثر من ثماني سنوات وهي تعمل في خدمة اللواء وحرمه أصدقاء الرائد ومن قبلها كانت أمها تعمل طاهية لنفس الأسرة.. لها أخوات كثيرات إلا أنها كانت تفوقهن جمالاً وطلبت حرم اللواء أن تعمل لديها فهي ليست بعيدة عنها. والبيت مضمون ولن تشعر فيه بأي نوع من الغربة... ما أن جاءت إليهم إلا وحرصت الزوجة بكل قواها أن تعلمها وتلقنها أمورا كثيرة للبيت تأخذ بيدها لتتعلم كيف تنسق الزهور وكيف ترد على التليفون وتستقبل الضيوف حتى صارت «جمالات» في سلوكها لا تختلف عن أي بنت لأسرة قادرة تقطن في نفس الحي. حيّ الزمالك.. ربما ماشجع حرم اللواء على ذلك شدة

حلاوة «جمالات» فهى شقراء فارهة لها عينان زرقاوان يطل منهما باستمرار الضياء والفرحة والأكثر من هذا أن لها قابلية واستعداد غريبا للتعلم والتلقى.. لا تضجر من كثرة التوجيهات ولا تتبرم من تكرار الملاحظات. حرم اللواء قدمت لها كل خبراتها.. أعطتها من روحها حتى صارت على هذا الاكتمال والفهم.. ولم تنس مظهرها أيضاً فكانت تشترى لها الأقمشة وقد أصبحت تجيد الحياكة بفضل تعليمها فكان لها كل عشرة أيام ثوب جديد.. وحرم اللواء سعيدة بها تراها ثمرة من ثمرات مجهودها وتعليمها وخاصة أنها لم تنجب وقطعت الأمل فى هذا من زمن بعيد... كبرت «جمالات» ونما جسدها من حسن تغذيتها وقدر النظام والنظافة الذى تعيشه فى هذا البيت. وكان لابد من التفكير فى تزويجها ولكن ليس بأى زوج إنما بإنسان يكون قادراً على أن يمنحها حياة فيها قدر من الانسانية فقد اعتادت «جمالات» على معيشة فيها نوع من الرفاهية صحيح إنها خادمة وأن أباها كان يعمل «جناينى» فى أحد البيوت الكبيرة فى حى الزمالك. وأمها كذلك طاهية إلا أن الظروف جعلت «جمالات» تعيش وتفهم أكثر من واقع بيئتها الحقيقية... وابتدأ المشوار الصعب على حرم اللواء فإذا فكرت فى سائق جيرانهم وعرفت حقيقة مرتبه ترفض وتراه لن يكون قادراً على إسعادها وإن سألت عن ابن المعلم صاحب جزارة إيزيس وعرفت أنه متزوج من قبل من امرأتين رفضته فى التو واللحظة والذين يعملون فى مكتب زوجها دخولهم لا تتعدى جنيهات تعد على أصابع اليد الواحدة ويتطلعون إلى اليوم الذى يتركون فيه الجيش وخدمة الجيش حتى يزيدوا من دخولهم... حتى ساعى البريد فكرت فيه ثم اكتشفت أن زوجته ماتت

وتركت له ثلاثة أطفال لم تترك الزوجة حتى من يقرأ عداد الغاز الطبيعى أو عداد الكهرباء إلا وسألته ووقفت معه أو دعته واحداً بعد الآخر ليشرب كوبا من الشاى وهى تسأل وتستفسر عنه مرة بطريق مباشر ومرة بطريق غير مباشر وفى كل مرة يخيب أملها فإما أن يكون متزوجا ولا مانع عنده من الزواج بأخرى وخاصة لو كانت بهذا الجمال أو يكون مطلقا ولديه أطفال وفى يوم دق الباب ولما فتحت «جمالات» كان صوت القبلات والسلامات يصل إلى حجرة حرم اللواء التى خرجت لتتبين الأمر وعرفت أن «أم جمالات» والتى كانت طاهية عندهم قد أوحشتها ابنتها فجاءت لتراها ثم بعد ذلك وبنوع من اللين المقصود كانت تطلب من حرم اللواء أن تأخذ ابنتها «جمالات» لترى أخواتها فى البلد وعلى أن تعود خلال أيام قليلة توجست الزوجة منها خوفاً وقالتها صريحة تحذرها من أن تحاول تزويجها لأنها تقوم بهذه المهمة بدلا عنها وبأن الفتاة فى حاجة إلى زوج من نوعية خاصة حتى يقدرها «فدعينى أختار لها ما يناسبها لأنى علمتها أشياء كثيرة لن تنساها بل ستحتاجها باستمرار» وأكدت عليها «يا أم جمالات أنا حاطة فى بالى تزويج جمالات لكن النصيب له أوان» والتفتت إلى جمالات تحذرها: «إياك أن يضحكوا على عقلك ليزوجوك أى رجل والسلام.. أنت لابد أن تأخذى موظفا مضمون المستقبل.. و... و... وإذا حدث غير ذلك ما عليك إلا العودة فوراً و... و... الخ».

جهزتها حرم اللواء بكل ما تحتاجه.. ولم تنس أن تعطيها عشرين جنيها «على جنب» لتعود إذا اضطرتها الظروف... ثم أعادت وزادت فى تفهيمها ولكن «جمالات» لم تعد مرة أخرى.. انتظرتها حرم اللواء

وهى تضع فى بالها شخصا معينا وطال انتظارها... إلا أنها لم تعد وسمعت أنها تزوجت أو زوجها أهلها... ومرت الأيام ونسيت حرم اللواء هذه الواقعة تماما... وفى صيف كعادتها قررت أن تقضيه فى الاسكندرية ركبت هى وزوجها القطار من السابعة صباحا وهما ينتظران بشغف أن يقتربا من الإسكندرية حتى يتنسما هواءها العليل المعروف برائحة البحر الممزوجة باليود لتملأ صدرها ولكن فجأة توقف القطار فى طنطا وطال إنتظاره وأخيراً مال عليهم أحد مفتشى القطار وهو يطلب بصوت مسموع أن ينزل جميع الركاب وينتقلوا إلى الرصيف المواجه ليأخذوا قطارا آخر إلى الأسكندرية وذلك لعطل مفاجئ طرأ على القطار... نزل اللواء والسيدة حرمه وفضلا أن يتناولا كوبين من الشاى فى «بوفيه» المحطة فالوقت فيه متسع وبينما هما جالسان يحتسيان الشاى وقد انشغل الزوج فى قراءة الجريدة والزوجة تجفف جبهتها من شدة الحرارة إذ اقترب منهما طفل يناوشها ويبدو من ثيابه الرثة أنه يمارس الشحاته والزوجة تفكر أن تفتح حقيبتها لتعطيه شيئا أو تحجم حتى لا تشجعه على التسول... إذ تبينت صوتا مألوفا لديها رغم ضوضاء المحطة لامرأه تنادى «ياواد ياسيد.. ياواد ياسيد» ما أن سمع الطفل اسمه إلا وخطف الحقيبة فجأة من «حجر» حرم اللواء وجرى من أمامها كالريح ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام شابة تحمل طفلة على ذراعها حافية القدمين وتمسك فى كفها بمجموعة من الأوراق التى تحمل آيات قرآنية مختلفة حاولت الزوجة أن تستجير بالناس وهى تقول «لقد سرق حقيبتى» بينما زوجها رفع رأسه من الجريدة وهو يقول: «امسكو الحرامى» وبنظرة أخرى إلى المرأة المتسولة عرفت فيها

«جمالات» وعرفتها «جمالات» لم يكن الموقف يحتمل أن يتصافحا إذ جرت خلف ابنها وهى تولول «ياواد ياسيد».. الشنطة.. شنطة حرم سيادة اللواء الله يخيبك ياسيد» بينما الزوجة تتابع الموقف بعينيها وقد وقفت وبجانبها زوجها والتفت جمع من الركاب النازلين من القطار إلى نفس الموقف إلا والطفل يقفز نازلاً على شريط القطار والشنطة فى يده وقفزت والدته خلفه رغم وجود الطفلة على ذراعها بينما الطفل يجرى وقد عبر أيضا الشريط الثانى الموازى إذ جاء قطار من الاتجاه المقابل ودهم الأم التى تتعقبه بطفلتها ولم يتوقف فلا يمكن كبح سرعة كل هذا العدد من العربات فى ثانية معينة.. تجمع المارة على الرصيف ينظرون بينما الطفل كالريح يبتعد بالشنطة إلى أن اختفى تماما.. مالت حرم اللواء على كتف زوجها تدفن رأسها وهى تبكى وتهمس «جمالات جمالات» وقبل أن ترفع رأسها على صفير القطار يعلن عن بدء تحركه كان يرن فى أذنها رغم كل شئ صوت الرائد «وحيد مهران» وهو يقول: «لو لم تكن هذه الخادمة عندك بالذات يا سيادة اللواء لتزوجتها فوراً.

فى المطعم

طلب

منى «البيه» المدير بإلحاح أن أحضر معه دعوة الغذاء التى سيقيمها يوم الجمعة لبعض عملائه الأجانب فى مطعم «صلاح الدين» فى وسط القاهرة تحت إحدى أعرق العمارات هناك. قبل أن ينتهى من كلماته التى تشعرنى دوماً بمدى احتياجه إلىّ ليس فقط فيما يتعلق بالعمل إنما أيضاً ما يتعلق ببيته وابنته! فكثيراً ما يأخذ رأيى فى موافقتى أو رفضى بشأن إعطائها درساً خاصاً فى مادة اللغة العربية أو فى مادة الرسم التى ليس لها أى ميل لها... قبل أن ينتهى من كلماته التى تشعرنى دوماً بمدى حاجته إلىّ كانت صورة «ممدوح» خطيبى تحتل تفكيرى فلا شك أنه يغار علىّ منه وسأتعرض للعديد من الأسئلة شىء يشبه الاستجواب..... والأدهى من ذلك أن الدعوة ليوم الجمعة الذى نقضيه سوياً لا نفترق فيه مطلقاً نجوب الشوارع ونتتبع أسعار الأثاث فى

صعوده المجنون رغم أننا لا ندخل المحلات التى تأتى إعلاناتها فى التليفزيون. ومشكلتنا أننا لا قدرة لنا على الشراء الآن... ليس قبل عام آخر حتى ننتهى من جمع مقدم الشقة التى اخترناها سوياً.... الحق أن نظرتى المشدوهة إلى «أحمد بك» المدير جعلته يضع يده على الهاتف فوراً وعلى الطرف الآخر كانت «روحية هانم» حرمه بكل هذه الحشرجة الناعمة من صوتها ترجونى هى الأخرى أن أذهب معه فاللوز لديها متضخمة جداً والتهاب الحلق غيرّ من طبقات صوتها و... و... و...

لم يكن أمامى إلا الموافقة فالهانم مريضة وابنته أصغر من أن تستضيف زواراً أجانب... وعاد صوت «ممدوح» خطيبى يدق فى رأسى «حتى يوم أجازتك الوحيد ماذا يريد منك هذا الرجل بالضبط؟ هل أنت فى مقام زوجة ثانية له أم يبدو أننى آخر من يعلم» ويظل يتمادى فى اختياره للعبارات الجارحة وأنا أحاول تهدئته... ثم ينظر إلى بما يشبه القرف والندم على ارتباطه بى يعقبها دقائق من التجاهل التام لى ولا يكتفى بهذا بل يخاصمنى يومين أو أكثر وأنا أكرر محاولة الكلام معه والاحتكاك به بطريقة أو بأخرى إلى أن أنجح فى هذا وتعود البسمة إلى وجهه الذى أحبه كثيراً فيضع يده على ظهرى ويقبل أن نخرج من المكتب سوياً لنتناول «ساندوتش على الماشى».

المقصود... ذهبت إلى هناك مبكرة لأنى لم أستخدم عربة أجرة تسعفنى فى أى لحظة أختارها إنما قطعت نصف المسافة سيراً ثم استعنت «بالميكروباص» وكان على فوراً أن أختار قائمة الطعام التى ستقدم كما أوصانى بها البيه المدير.

المدخل إلى الطعام يتمثل فى طبق من «الجمبرى المشوى» يليه الطبق الأساسى من «اللحم المشوى» أيضاً ثم ختام الوجبة قطعة سمك مطهوة على البخار فقط فضلاً عن أطباق محشى ورق العنب التى يشتهر بها هذا المكان كما عرفنى هو بذلك لم أتصور أن تنتهى مفاوضاتى للطلبات فى أقل من ربع ساعة واكتشفت أن الوقت مازال طويلاً أمامى. فمن شدة حرصى على الموعد خرجت مبكرة فعلاً وكان علىّ بعد ذلك أن أنتظر قاعدة فليس من المعقول أن أتحمل مشقة العودة سواء بالأتوبيس أو الميكروباص بالنفر مرة ثانية إلى «منيل الروضة» لأعود بعد ساعة!! أمرى لله لعلهم ينتهون من جولتهم بسرعة فى «خان الخليلى» فدائماً أسمع أن الأجانب يتناولون وجبة الغذاء تمام الظهيرة وحتى أعود مبكرة لألحق «بممدوح» فلابد أنه الآن ينتقل من حديث إلى آخر مع والدتى ليقطع الوقت..... ولا أدرى لماذا البيه المدير لا يستعين به فى مثل هذه المواقف بدلاً منى فنحن نعمل سوياً فى شركته!!!

ودارت عيونى تتعرف على المكان. النجفات مدلاة ولكن قطع الكريستال فيها مدفونة تحت طبقات من التراب ففقدت بريقها وحبست أضواءها لتنعكس الظلال شاحبة فتضفى على المكان شاعرية ورومانسية رغم الظهيرة لا شك أننى أفكر فى شراء واحدة لشقتنا ولكنى لن أتركها تنطفىء إلى هذا الحد مطلقاً. الكراسى ومفارش الموائد مغطاة باللون الأحمر القانى.

بساط الأرضية له نفس اللون. كنت فى عز النهار ولكن إحساسى بأننى فى «ملهى ليلى» لم يفارقنى. استحوذ على كيانى. «ملهى ليلى»

من تلك التى نراها فى الأفلام وقد طلبت من «ممدوح» أن يرينى واحداً منها بعد زواجنا ولكنى بالتأكيد قد عرفته الآن... اللون الأحمر والإضاءة الخافتة بفعل عدم نظافة النجفات والتى بدت لى الآن أنها متعمدة!! وارتداء خدم المكان البذلات السوداء ذوات الربطة الصغيرة السوداء أيضاً المشدودة على رقابهم وتلك الموسيقى الخفيضة ذات الإيقاع... أرهفت سمعى لأتفهم كلمات الأغنية الأجنبية فلم يصلنى إلا نوع من التأوهات ممزوجة بدقات إفريقية راقصة... لعله مغنٍّ زنجى يبكى قدره. هل أحدث صاحب المطعم عن قذارة النجف؟ لم يطل تساؤلى إذ وجدته يبتسم بانحناءة أكيدة اخجلتنى فابتلعت فكرتى وبإشارة صغيرة من يده كان كوب ليمون أخضر يقبع أمامى وبابتسامة أخرى فهمت أنها احتفاءً بى وإلى أن يأتى «أحمد بك» صاحب الشركة. احتضنت بكفى كوب الليمون أمتص رطوبته فرغم أن المكان مكيف إلا أن يدىّ ساخنتان أكثر مما أحتمل... ثم بدأت أرتشف الليمون رشفة... رشفة وبدأ الباب من أمامى يفتح أكثر من مرة «باب مروحة» يحدث صريراً أنيقاً فى كل مرة.

وبدأ الزبائن يتوافدون وأنا على جلستى. فى البداية حاولت أن أستنتج بشكل تقريبى أعمار السادة البهوات وفى التو أدركت أن هذا المطعم مكان أسرى من الطراز الأول... كله عائلات فدائماً البيه والسيدة الهانم حرمه بجواره المشيب يخط رأسه ليضفى على مشيته الوقورة مهابة، الأناقة ملحوظة وأغلى العطور تعلن عن مقدمه. بالأمس فقط إتفقت و «ممدوح» أن أشترى له زجاجة «بوص» وهو عطر معين بمعنى كلمة رئيس ولكن ما منعنى أن اسم الرائحة لم يعجبه وقال لى

«بعد عشرين سنة يا حبيبتى ربما ينطبق اسم الرائحة على أما الآن فليس من المعقول أن أكون موظفاً صغيراً وأضعها بعدها ضحكنا كثيراً.... آه لو فى استطاعتى أن أشترى «لممدوح» مثل ما يلبس هؤلاء الرجال؟ أرى أغلبهم فى عمر النضج الأقرب للكهولة «البايب» على طرف الفم أو السيجارة بالمبسم..... ومن فقد منهم شعر رأسه مشّط المتبقى بطريقة بارعة واعتمد على السوالف الغزيرة ليغطى بها المساحات الخالية وسط الرأس. أغلب الوجوه مما أرى لها صور على صفحات الاجتماعيات فى المجلات الشهيرة على أن يسبقهم اسم رجل الأعمال أو عضو مجلس الإدارة.... هل أقول إن كل الرجال هنا لهم أعمار متقاربة؟ جيل واحد فيما يبدو من نحو الخامسة والأربعين إلى نهايات الستينيات... قمه النضج كما يقولون وقمة المناصب.. وقمة القدرة المالية والفهم فى كل ما يتعلق بهم وإدراكهم لكل ما يحيط بهم.

بدوا لى أنهم فئة من الناس كل شيء مدروس فيهم من أول الحذاء إلى رائحة العطر المختار والمنطبق ليقدم نفسه فى أرشق كادر ممكن..... الزوجات متأبطات أذرع أزواجهن كل واحدة «مكلبشة» فى البيه زوجها والأعمار أيضاً من الأربعينيات إلى الخمسينيات.... أصغر عشر سنوات من زوجها. الجسد «مريرب» من العز ملابسهن فى أغلبها من الحرير الخالص تشف عما تحتها من أشهر الماركات للمشدات الدانتيل وما يضغط المعدة وما يضغط الوسط ولكن هيهات فالسيدات هوانم العز «والكرواسون بالزبدة»» فى الصباح واضحة على أجسادهن... أحمر الشفاة مبالغ فيه والماسكرا جعلت من كل رمش فى عينيها سهماً يشير إلى أن من تتعلق بذراعه هو رجل الأعمال الفلانى

زوجها هى... الأمشاط الذهبية والمرصعة تزين الرؤوس وأغلب ألوان الشعر حمراء نحاسية.... هه لابد. أن المرأة بعد الأربعين يخط المشيب أيضاً رأسها... ولكن هل يتفقن جميعاً على اختيار صبغة الرأس المشتعلة؟

لفت نظرى أن الأغلبية إما تمسك طفلة بيدها أو يريح الأب ذراعه على طفلته بما يشبه الإعزاز. هل هى محاولة أخيرة للتمسك بالشباب أم لدق وتد أخير للزوج وهو فى أوج أيامه.... ووجدتهن فى منتهى الذكاء فما معنى أن تعطى المرأة كل قدرتها على الإنجاب فى أولى سنواتها الزوجية وتنتهى من المهمة كأنها تتجرع دواء!!؟.

على العموم ليس المهم أن أعرف السبب ولكن النتيجة واحدة. سيدة فى قمة زينتها الداخلية والخارجية التفتح الأخير للوردة قبل سقوطها الكبير وفتاة تلبس «السوكيت» الأبيض تتمسك بيد أمها أو ذراع أبيها ولما بدأ المكان يزدحم وتقترب الكراسى والموائد من بعضها ويضطر الأزواج إلى الانفلات الشاعرى من قبضة الزوجات شعرت لبرهة أن الأزواج وهم يتقدمون فى حركات «الچنتلمان» يوسعون لزوجاتهم ليجلسن أن الزوجات بتلك الصدور الممتلئة وكأن لكل واحدة من صدرها فوهتين لبندقية يشهرنها إلى ظهر الزوج كجندى يقود أسيراً.... وهو لا يرى نفسه كما أراه الآن يسير فى استسلام غريب يجذب الكرسى لتتوسط عليه الزوجة ثم آخر لتقفز عليه «الهنومة» الصغيرة تجلس بجوار بابا. هل كلما كبر مقام الرجل يكون مستأنساً إلى هذا الحد؟ مزيج من الطاعة والرقة يغلفان لفتاته وتصرفاته وتصورت «أحمد بك» مع

«روحية هانم» زوجته هل هى الآمرة فى بيته ولا يملك هو إلا الطاعة؟ ولم لا؟ إن دعوته لى أيدها بطلب زوجته على الطرف الآخر وكأنه يقول لها: «أنا لا أتصرف إلا بعد موافقتك».... ولماذا إذن يغار «ممدوح» خطيبى.. ليته معى الآن ليلمس مدى حرص البهوات على زوجاتهم والتفانى فى إرضائهن وما أنا ومثيلاتى إلا البرواز الخارجى الذى وظيفته تقديم صورة لهما سوياً ذات مفهوم معين.... لكن هل يمكن أن يكون «ممدوح» بمثل هذه الرقة فى معاملتى بدلاً من النقد والصياح المستمر؟؟.

أما عن صاحب المطعم الضخم الجسد فبلا حساب يوزع ابتساماته وعبارات الترحيب الخفيضة هنا وهناك ليقبضها بعد ذلك أضعافاً مضاعفة. لابد أن «البيه المدير» نسينى.... لم يحضر إلى الآن «خان الخليلى» استهواهم وسيتركوننى هنا!! وبإشارة من صاحب المطعم نقر فيها على ساعة يده أكثر من مره وهو يبعثر نظراته ذات المغزى والتى لم أصل إلى تفسير واضح لها وجدت كل الرجال يبدأون فى الانصراف والهمهمات تؤكد أنها صلاة الجمعة وفى خفة الفهود تسربوا وعقب آخر خطوات ابتعدت تحول المطعم إلى سوق وكأن وجود أزواجهن كان يحول دونهن والثرثرة فشرعن يتكلمن فى «نفس واحد» والبنات جرت هنا وهناك... وعرفت من التقاطى للكلمات أن أغلبهن لهن أحفاد وحفيدات. ورغماً عنى وبإرادتى معاً تحولت إلى محطة استقبال لكل الثرثرات التى تدور حولى كأننى تحت مظلة لخليات النحل.

- زى ما أنت عارفة لا أدرى «على» بيروح فين!!

- صلاة الجمعة.

- الصلاة انتهت لها أكثر من نصف ساعة؟

- عجيبة هو فيه شغل يوم الجمعة؟

- آه... يقولون إن أنجح الصفقات هى التى تتم يوم الجمعة.

- أنا قلت «لعبد المجيد» إن أى صفقة هى من حظ البنت الصغيرة بعد لحظة تفكير كانت إحداهن تؤكد:

- والله إنت شاطرة! سأعمل نفس الشىء بالنسبة لابننا وائل... ووجدت نفسى أخالف لأول مرة تعليمات خطيبى «ممدوح» الذى عودنى طيلة ثلاث سنوات أن لا التفت يميناً أو يساراً وراء أى شىء عود رأسى أن تزرع بين الكتفين دون حركة لا أدرى ما الذى انتابنى هذا اليوم صار رأسى فى حركاته كسائق التاكسى الذى يلتفت يميناً ويساراً كالبندول بحثاً عن زبون!!

كوب الليمون المثلج انتهى من أمامى حتى قطع الثلج فى قاع الكوب جرشتها بأسنانى وقطرات الماء القابعه المتبقية سحبتها بالشفاط ومع ذلك فحلقى جاف ولم أجرؤ على طلب أى مشروب آخر لأقطع به الوقت وعاد صرير الباب المروحة الأنيق يفتح ويغلق فألتفت باهتمام متوقعة المدير وضيوفه ولكنى وجدت الوجوه التى تسللت بشاعرية بحجة الصلاة تعود مرة أخرى إلا أنهم لم يدخلوا بل وقفوا جميعاً هناك!! فمددت رقبتى أتبين سبب عدم دخولهم؟ كانوا محشورين أمام ثلاثة كبائن للتليفونات... وبدأت الأطباق الشهيرة على أيدى الخدم

تروح وتجيء. رائحـة سلطة «البـابا غنوج» فى أنفى «الجمـبـرى المشـوى» .... وآه يامعدتى... لم يكن هناك بد من أن أقـوم لأحاول الاتصال «بأحمد بك» فلابد أنهم فى الشركة يتعاقدون وقد سرقهم الوقت... أذهلنى أن الثلاث كبائن التى عند المدخل مازالت مشغولة فوقفت أبحث فى حقيبتى عن «شلن فضة» ولكنى لم أجد.... وانتظرت ريما يمر صاحب المطعم فسمعت اثنين يتهامسان خلفى:

ـ إنت خلاص أكلت؟

ـ أيوه «ياعلى بك» علشان ميعادى و...

ـ مشوارك بعيد؟

ـ فى المهندسين.... ولكنها منتظرانى هناك من الصبح.

ضحك الآخر وهو يقول:

ـ لأ ياعم... أنا فى نفس العمارة وموصى الواد السواق الساعة واحدة ونصف يأخذ الجماعة على النادى.... وبعدها أنطلق.

ـ يوم الجمعة دايماً زنقة!!

تصلبت رقبتى... أحسست بصفير يدوى فى أذنى بينما يفتح باب الكابينة الأول ثم أغلق مرة أخرى بقوة ورغم ذلك سمعت بوضوح «معلش ياحياتى طبعاً هتغدى معاكى كلها ربع ساعة... اهدئى ياحياتى» وعادت الهمسات التى خلفى:

ـ مين طالع الزمالك «ياحسن بك» يأخذ الجماعة فى سكته أصل السواق بيغير تيل الفرامل و..

- ليه الإحراج ياشفيق؟ إنت عارف أن الوحيد اللى رايح الزمالك «فريد أبو العينين» ومراته موش ناوية تخلص أكل النهارده!

الكابينة الثانية يفتح من فيها الباب فتحة صغيرة.... يبدو أنه الحر... كان صوته واضحاً كأنه يتحدث معها أمامى:

- الهدية طبعاً معايا بس إنت عارفة إن...

ورغم أنه سحب الباب بقوة وسرعة ليحكم غلقه إلا أن صوت سيل القبلات المتتابعة الصغيرة ظلت تتردد كالصدى أو كموجات صغيرة تتوالى.... شعرت بوجهى ساخناً والصفير يعربد فى أذنى.. ما هذا الفخ الذى وقعت فيه؟! هؤلاء الناس لا يوقفهم شىء عما يريدون أن يقولوه أو يفعلوه؟ وتسمرت قدماىّ فى المكان... تمنيت أن أجد «ممدوح» بجانبى ينتشلنى من هذا الموقف... ووجدت نفسى وجهاً لوجه أمام المراهق صاحب القبلات المتتابعة وهو يدلف من الكابينة وبلا إرادة ورغبة فى الخلاص كنت أسأله:

- ألاقى مع سيادتك شلن فضَة؟

رمقنى بنظرة ثم أسقط فى يدى حفنة من الشلنات ولم ينتظر أن يأخذ مقابلها بل ابتعد عنى بخطوة واسعة وهو يزيح الباب المروحة.... أحاول أن أنادى عليه «يا أفندم... يا أفندم» فأشاح بيده بضيق وهو يندفع داخلاً بعد الباب... وصلنى إحساسه الأكيد بالضيق من وقفتى فاندفعت بلا إرادة داخل الكابينة فامتلأ أنفى برائحة عطر من كان فيها وطلبت أمى... دق الجرس دقة واحدة وكان بعينه على الطرف الآخر.

- ليه تتعبى نفسك... ما هو لسه بدرى.

- ....

- أنصحك ومديرك الهمام أن تدعوهم للعشاء أيضاً والوقت معك براح.

- الحكاية ان...

- لا حكاية ولا غيره.. أنا شبعت أعذار وتحملت أكثر مما يتحمل أى رجل وأنت...

- أنا ماذا؟

- أنت لا إحساس لك ولا مشاركة لك على الإطلاق و....

- أنت الذى ترفض مشاركتى أنا محتاجة لك الآن.

- يا آنسة أنا أرفض مشاركتك فعلاً.. واعلمى أن هذا آخر يوم سترينى فيه... إعتبرى... إعتبرى الخطوبة مفسوخة... هل استرحت الآن؟

- ياممدوح إعقل....

- إنت خليتى فىّ عقل.... خطاب لك كتبته من ساعة. و «الدبلة» فى الحفظ والصون فى جيبى.....

كان صوته أكثر مما تحتمله أذناى وفوق هذا ألقى بالسماعة بكل قوته ربما على المائدة التى تتوسط الصالة عندنا فى البيت... فانتظرت برهة إلى أن تناولتها أمى ولم أفهم منها شيئاً كان صوتها متخطفاً وهى

تنصحنى أن لا أحاول رؤيته فترة إلى أن يهدأ فقد خرج ثائراً وهو يصيح بأنه لا يوافق على أن يشاركه آخر فى خطيبته.....

وضعت السماعة وأنا أتساءل أى مشاركة التى يقصدها «ممدوح» وأنا منسية ومحرجة ومذهولة مما عرفت وفوق هذا جائعة «والبيه المدير» لم يأت ولن يأتى.... ولعنته فى سرى... لا شك أنه مثلهم تماماً بل هو منهم وضعنى فى هذا المأزق اللعين حتى يبرر خروجه يوم الجمعة أمام زوجته المريضة.... ثانية أخرى مرت بى وأنا مازلت داخل الكابينة الخانقة وقد قررت أن لا أطلب «أحمد بك» فى الشركة فلن يكون هناك.... ولا هو يعقد صفقة ولا يحزنون.... ولعل «ممدوح» يفرح لهذا المقلب الذى شربته لأذنىّ.... أما مسألة الطعام الذى طلبته فليس مشكلة سترسل الفاتورة فى الصباح إلى الشركة.... سقط علىّ الوعى كاملاً وفهمت... فهمت نظرات صاحب المطعم وانحناءاته وتلك الابتسامة الساخرة التى كانت ومازالت بالتأكيد على فمه.

المحاولة الثانية

حين كانت المستشفى مستغرقة فى رقدتها اليومية وأنا أشتهى ولو بعضا من هذا الهدوء الذى يسرى فيها لعلنى أنام ولو بعض ساعة ويبدو أن حاجات الإنسان تتغير ولكن قدراته لا تساير متطلباته حتى ولو كان النوم لدقائق فقط.... القرص السحرى ابتلعته قبل موعده والعد من واحد إلى أكثر من ألف رددته بإصرار صحيح وأنت ياهذا النوم أعز حضوراً من حدوث معجزة!!

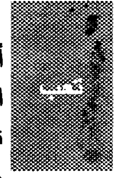
بأصابعى المخذولة أبحث عن ساعتى.... بقى لهم أقل من ثلاث ساعات ويعيدون لف خصرى بالجبس مرة أخرى. ولكن هل يمكن إصلاح ما كسر؟ سؤال كثيراً ما صك عقلى بالحاح ليبقى متصدراً مكمن شعورى بلا جواب!! أربعين يوماً مصلوبة على هذا الفراش حتى بت أؤمن أننى لن أتزحزح إلا يوم أن أنفلت داخله بلا إرادة عمق الثرى

الأبدىّ وهناك أغيب عن ذاكرة الزمان وأبقى وقفاً لفراغ اللاوجود. هكذا أستحلب قلقى قطرة... قطرةوأقتات وحدة جديدة علىّ!! فبالأمس فقط... أمسى القريب كانت كل الدروب تعرف وقع خطواتى المتعقلة منها والمجنونة ولكنى أصبحت أضعف حتى من أن أملك إحساسى بالجنون لأن أكثر ما أشعر به معربداً فى عمق قرارى ويشبه أنات البحر التى تترى بلا توقف هو شعورى بالوحدة فقط. شعور ظل يحاصرنى أربعين يوماً حتى قررت أن أمد يدى لألتقط قلماً وورقة وأكتب إليه. ليس هناك أكثر من نصف بوصة بين أصابعى والقلم.... قليل من الصبر ولابد من أنى ماسكة به..... أخيراً القلم فى يمينى الآن والورقة فى يدى اليسرى ماذا أطلب أكثر من هذا؟ العالم الآن بين يدى!! نفس هذا العالم الذى عشته يوما ما يتأرجح في قاع مخيلتى المجهدة أرى فيه ماضىٌ يملؤه العناد وأحس بملمس القلم بارداً بين أصابعى ولكنى مصرة على أن أكتب إليه ولا أعتقد أنه بقى فى نفسى شىء من التكبر فالتألم طهرنى وأيقظ رغبة لا تقاوم داخلى ووطأة العذاب صرعت النوم الذى اشتهيته لتكسبنى يقظة أجتر معها ماضى السنوات التى مضت منذ أن فقدت الرجل الوحيد الذى كنت أملكه، وبقيت أتلذذ بارتدائى السواد السنة تلو السنة وصممت أن أكافح وأعمل لأوفر لصغيرى كل ما يشتهى وما لا يشتهى.... ومرت الأيام وأنا استنشق الهواء والضباب فى صدرى.... أريد أن أقهر الزمان.... أريد أن أحيا هكذا بقوة ذراعى وعبير روح ابنى.... لا أريد رجلاً... لا أريد زوجاً آخر مهما كان هذا الزوج فأنا أحلم أن ألمس الحياة مجسدة بين أصابعى دون شخص الرجل.... وكانت لى عبارات أحسن ترديدها عن المساواة.... عن

الوفاء للراحل..... وعن الحب الذى يأتى مرة واحدة وفقط وكنت تقف منى حائراً تحاول... وتحاول أن تفهمنى أنك بطلب الزواج منى لا تسلبنى حريتى ولا تحرم ابنى مطلباً وكنت تقول لى أيضاً «إن شوقك الجامح ورغبتك المبالغ فيها إلى الحرية والاستقلال إنما يطفىء روحك ويسحق كيانك كأنثى وسيأتى اليوم الذى تتربعين فيه نادمة على أشلائها» ولكنى كنت كالطفلة الفرحة بتعلمها كلمتين أو ثلاث فأنظر إليك بدلال وأردد كلماتى المقدسة «الوفاء.. الاستقلال... ابنى والحب الذى يأتى مرة واحدة وفقط». وكان لابد من أن ترد على يوماً لتقول: «إذن لا مكان لى فى قلبك»».

ورحلت بعيداً عنى وبقيت أنا كما كنت دائماً لى خطوات رتيبة وأخرى مجنونة فى الحياة إلى أن كان ذلك اليوم الذى انقلبت بنا فيه سيارة الشركة التى أعمل بها ونحن فى طريقنا لرحلة صيفية وانتقلنا جميعاً إلى المستشفى ولكنى الوحيدة التى مازالت إلى يومنا هذا راقدة من كسر فى خصرى.... البعض إطمأن على بالحضور وآخرون اكتفوا ببعض المكالمات الهاتفية وأقاربى كانوا أكثر نزفاً لروحى وهم يجزلون لى العطاء المادى ثم تقوى قلوبهم على أن ينصرفوا بعد برهات قليلة من وصولهم وهم يعتذرون بضيق الوقت!! أو لعلهم كانوا يخشون عدوى الكسر!! رباه من قال إننى فى حاجة إلى المال.... أنا مستعدة أن أدفع كل ما لدى فى سبيل أن يمسك بأصابعى إنسان... يحتضن يدى المبللة بين راحتيه وينظر إلىّ... ينفذ داخل عينى ويقول لى.... يقول أى كلمات لأحد المعانى التى أدور فى فلكها الآن... ربما يتمنى لى شفاء سريعاً يطلب من الله أن يشفينى... الله ذلك الاسم الذى

مدلولة قوة أساسها يقين يملؤنى بالأمل فى رحمته بعد أن أضعت بنفسى الرجل الذى أحبنى وانتظرنى. بقى لى ساعة واحدة على لف الجبس الجديد حول خصرى.... والقلم مازال فى يدى والعبارات على لسانى فى محاولة أكيدة للانطلاق والنوم ويالك من مستبد جبار يحلو لك أن تداعب جفونى الآن... ولكنى لن أستسلم لك سأصمد أمامك... لن تقهرنى فلابد من أن أكتب إلى الرجل الذى أراد يوماً ما أن يكون بجوارى فى يوم كهذا ربما قهرك يانوم فى كلا الحالتين وأنت تجافينى وتتعالى علىّ ويقهرك مرة أخرى وأنت تحاول أن تجعلنى أستسلم لك طائعة... أكتب ولا مانع عندى من أن أبكى على ذلك الرجل الذى وعدنى يوماً ما أن يرتبط بى على أن لا يقيد حريتى ولا يحرم ابنى مطلباً.



بيتها من معنى الجفاء الذى طال بينهما..... وهل يمكن أن تقتلع نبتات الحب من أبعد جذورها؟ قلبها يبوح لها بأنه المحال... نبضها يؤكد لها بأنه لا يحبها فقط ولكنه يعشقها تكشفه خلجاته وعضلات تحفظها فى وجهه ورقبته ومع هذا فإن رياح الهجران الباردة صارت الوسيلة الوحيدة بينهما... وفى لحظات أخرى كان إعصار أهوج يلفهما فيصرخ فيها مرة ثم يتجاهلها مرات... يهملها ويهمل أشياءها ثم يعود ويصطدم بها ليفجر موقفاً مجهولاً بينهما وينتهى منها!!... إلا أنها رغم ضراوة الثورة الدائرة بينهما كانت تجيد الإمساك بدفة مركبتها بل فى كل مرة لا تفلت الدفة منها، فقط وهو يرتحل عنها تسمع لآخر عبارات التحية التى يلقيها على البيت تسمع لها حشرجة ألم مروع... شهور طويلة بطيئة انسحبت من وراء ظهريهما لم ينجح فيها مرة واحدة أن يجعلها

تنفجر على أشلاء واقع وافد احتلهما بجسارة. فقط كانت تقتات جفاء يلسعها.... جمرة غير مرئية تتدحرج مع دورة دمائها لتستقر فى قلبها تؤكد معنى النكران والإهمال من زوجها.

* * *

البيت مهموم من موقفهما.... لها ابنة رحل والدها فتزوجته بعد قصة إعجاب متبادلة..... كانت أيامها لم تتعد الخامسة والعشرين وهو احتضن ابنتها وسارت بهم الأيام.... الفارق فى العمر بينهما كان شاسعاً ومع ذلك لم تشعر بمعنى أن تحسب عمره فى البدء!!.... ولكن مع الأيام شىء ما فيه انطفأ تجاهها وسطعت أشياء ومعان أخرى كان أقواها هذا الابتعاد المعجون بالشك الدائم فيها. ولولا خلجاته الداخلية التى كانت تكشفه أمامها فيطمئن قلبها وهى تقرر فى نفس اللحظة بأنها تعيش فعلاً حالة إعصار.... ولكن لابد من أن سيعقبه الهدوء وستعود السكينة إلى البيت... سيعود إليها.

عند ابنتها كلام حبيس فما الذى يريده بالضبط؟ ولماذا هذه المعاملة؟ هل تضايقه أمها إلى هذا الحد؟ «لا يرضينى ياأمى أن يلبى لى وينساك!! بل إنه لا يوجه إليك كلمة ولا يأخذ برأى لك حتى أنه ينسى أن يسلم عليك!؟».

وفجأة داهمهم الزلزال الشهير.... الأرض ترهلت تحت أقدامهما... صراخ.... صراخ.... التجفات تصطك وتتأرجح معلنة الهول... الأرض ترفض من عليها الدنيا تتطوح بقوة..... وبعدها.... وبعدها خرت الأرض ساكتة.

***

الناس تسأل عن بعضها البعض وكأن كل واحد لا يصدق أن الآخر مازال يحيا..... ولما عاد النبض للهاتف بعد ساعات وساعات كانت تنتهز الفرصة بين مكالمة وأخرى لتطلب مكتبه تستفسر عن موعد عودته فلابد أنه عرف كما عرفت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها وربما لم يتمكن من أن يطمئن عليها لعطل ما.... ولكن لدهشتها كان هو من أجابها وصلها صوته رائقاً لا أثر للهفة فيه أو قلق ولكنها فقط المفاجأة فقد باغتته بالسؤال:

- الله... أنت فى مصر؟!!

- أيوه... أيوه.

- لم أتصور أنك هنا!!

- لقد وصلت منذ يومين.

وانطفأت داخلها الرغبة فى التواصل معه فمرت لحظة ثقيلة بينهما قطعها وهو يقول:

- كيف حال من عندك فى البيت؟

- مثل كل الناس.

- لابد أننى سأحضر لأطمئن عليكما.

***

وما أن وطئت أقدامه عتبة البيت يحتضن ابنتها بصدق وقبل أن يمس جبهتها بقبلته التقليدية كانت الصغيرة تشده لتنفرد به فى حجرتها

وتغلق الباب بإحكام.... الباب سد يحول بينها وبين أن تسمع ما يقال ولكنها تتصور كل ما يمكن أن يدور هناك... إنها تعاتبه فقد كبرت لها من العمر الآن أكثر من سبعة عشر عاماً... إنها تصارحه وتعلن رفضها لأسلوبه:

- أنت لم تعد تحب أمي؟

- بيننا عشرة.. أمك في كياني.

- بكل المقاييس والشواهد هذا غير صحيح. وأتحداك أن تعطيني دليلاً واحداً..... صارحني بما يضايقك؟

- أشياء كثيرة تكبر كل يوم مع الأيام.

ومشت الساعة إلى ما بعد العاشرة.... لهما أكثر من ساعتين... إنها تعرف أسلوبه في الكلام سيراوغ ابنتها وسيستطيع أن يغير الموضوع وستخرج بلا شيء. وأقصى ما يمكن أن يقوله لها. بأن أمها مشغولة بعملها وأنها لا تعطيه الوقت الكافي وأن لها أصدقاء كثيرين... وأن.... وأن ولما فتح الباب كان على وجه ابنتها ظل إبتسامة إلا أنها لم تحاول أن.. تفهم منها شيئاً... أن تستوقفها مثلا... أو أن تسألها ولو بالهمس السريع فتركتها الصغيرة وتوجهت من فورها إلى المطبخ فلعلها عطشى أو جائعة واندفعت الأم داخلة إلى الحجرة التي مازال يجلس فيها وتلاقت نظراتهما في أقصر لقاء.... بعدها بدى متململاً في جلسته يسأل عن الوقت ويهمس بأن في الغد لديه أكثر من موعد مبكر... ماتت الرغبة داخلها في أن تستفسر منه عن حديثهما رغم وعيها بأن ابنتها فتحت لها بداية الطريق لتتكلم وتفرغ الحبيس الجاثم على

صدرها.... لا لم تتمسك بتلابيب الفرصة.... شيء ما تكسر داخلها فلم يكن ما هو أقوى من حدوث زلزال ليهرع إليها... أما أن تمر الساعات ومن بعدها الساعات دون أن يحاول الاطمئنان عليها فليس من بعد ما حدث شيء... فما حدث كان كل شيء.... الزلزال حسم موقفها. خلخل جذور صبرها العميقة فسألته الفراق.

***

وبعد أن رحل عنها دخلت ابنتها لتلقى عليها بتحية المساء وهى تحذرها: «ماما أرجو أن تنامى يقظة ربما يفاجئنا زلزال آخر.

والأم تشد ضلفتى النافذة الخشبية كانت تقول بصوت واثق «الزلزال حدث وانتهى.... نامى الآن مطمئنة» واحتوتها بين ذراعيها.

لم تدعونى لفرحك!؟

تلعثم.. وصلتها أنفاسُه مترددة، إلا أنها أحست أنه لم يفاجأ من سؤالها. فأضافت:

- ... هل يصح أن أعرف خبر زواجك وأسمعه من كل المحيطين إلا أنت؟!

اندفع يبسط لها الأمر فى كلمتين فقط:

- يُشرفنى حضورك.

أغلقت الهاتف بتأدب كبير فمن له امرأة أو من سيكون زوجا لامرأة ولو بعد ساعات معدودة يبدو أقوى من الوحيد إلا من نفسه.. سحبت كفها التى كانت تحتضن بها البوق وهى تعى قسوة الحدود التى أصبحت بينها وبينه فلم يعد لها.. وليس هناك بقايا أى أمل فى ذلك..

ولكن الغريب أن النبض داخلها كان يهزها – وإن كان على مهل – هزات فرحة.. فرحة من أجله.. فأخيراً اختار... أخيراً رضى.. وأخيراً أقنعته واحدة.

لم تتمهل حتى مقدار شهقة لتسأل نفسها: هل يُعقل أن تكون فرحتها أقوى من الألم داخلها؟! فقط على هزاتها المتتالية وغير المرئية بسهولة كانت تؤكد لنفسها كم سيكون سعيداً وسينقشع من نظرته ذلك الحزن الشفيف من بعد رحيل زوجته المفاجئ.

... ...

إختار إحدى زميلاته السابقات.. أيام كانت تعمل فى الجامعة لم تلفت نظره.. نحيفة سمراء ولكن لما رآها بعد سبع سنوات من رجوعها من بعثتها قرر أن يرتبط بها.. هو مازال فى أوج تألقه يسبقه صوته الأجش قبل أن يدخل محاضراته.. يعطى من عصارة عقله وهو يعلم الجميع.. يبذل وهو يشرح.. لا شئ يثير دهشته إذا ما كرر التفاصيل ولم تستوعب إحداهن!فقط يعبر بوجهه ظل ابتسامة وكأنه يؤكد بها طبيعة البشر فلعلها أو لعله كان شارداً أو مشغولا.

ولما رحلت زوجته عرف صدق الحزن ووخز الألم وتلفت حواليه كطفل يتيم يريد أن يوصل حياة كانت.. يتشوق إلى المشاركة والحب.. وأخيراً كان اختياره، أحسن اختيار – بشهادة الجميع – زميلته العائدة بعد سبع سنوات.. السمراء النحيلة.. نضجت وامتلأت.

أحلى ثوب لديها.. الأسود.. النساء يزداد جمالهن فى الأسود.. والبنفسجى شال حرير لفت به كتفيها.. أراحها تماثل شجن لونه مع شجن عينيها رغم صخب لحظه الاستعداد للخروج.

فى مشوارها الطويل وعينها تمسحان الطريق كانت تتصور كل الرجال من عربتها وكأنهم الدكتور «خالد» فتشرئب لتتأكد... حتى أعمدة النور والنخيل اللذان ملؤا بهما الطريق يجسدان رحابة طول الدكتور «خالد».. صوته وهو يقول لها باقتضاب «يشرفنى حضورك» الذبذبات الوحيدة فى أذنيها وأعلى من أى أبواق للسيارات.. أوتار صوته حتى فى هذه العبارة المقتضبة تفرحها وتنشيها.

ورغم وعيها ومعايشتها لما يجرى إلا أنها للحظات خاطفة كان يتبخر من عقلها وكأنها ذهلت عن أنها ليلته وأنها ليست كأى ليلة سابقة حضرتها احتفاء به فى مناسبات شتى كاكتشافه لاستعمال أكثر حداثة لأشعة «الليزر» أو أسلوب أكثر تجديداً لمرحلة طور النقاهة إلا أنها بسرعة استعادت الحقيقة بأن الليلة من أجل زواجه بأخرى.. من أجل إرتباطه الثانى دونها.

الشال البنفسجى انسحب ساقطاً عنها. وهى تحبك وضعه على كتفيها وتمسك بطرفيه وكأنها بهذه الحركة تلملم أشتات نفسها المهدرة وأسرعت داخله.. كان واقفاً وعروسه فى استقبال المدعويين.. شعرت للحظة أنها دعت نفسها وهو لم يطلبها... أمامها كانت تنفذ داخل مقلتيه وارتد إليها على الفور إحساسها بسعادته... مالت على عروسه لا إراديا وقبلتها.. ملمس جلدها الأسمر دافئ حتى السخونة فعرفت أن السعاده إحساس متبادل أخذ وعطاء ولو كان عن بعد «فخالد» أخذ من دفء عروسه وهى تنسمت من وهج نشوته فصارا محسوسين كالشمس للجميع.. ثم إقتلعت قدميها المزروعتين بشىء من الصعوبة من أمامها

لتفسح المجال لآخرين يهنئونهما ودلفت إلى داخل قاعة الاحتفال ولم تجد انساناً واحداً لم تعرفه.. زملاء المهنة الواحدة دائمة التعامل معهم.. التعامل المهنى بين معمل التحاليل الذى تملكه ومركز الدكتور «خالد» للأمراض القلبية.. زمان من اكثر من عشر سنوات وهى تألف الدكتور «خالد» تشعر بنوع من القناعة تجاهه فهو الرجل المناسب فى موقع يملأه ويستحقه.. علمه وصدقه يعجبانها لحد الولع حتى مظهره الخارجى يعجبها من يوم أن كانت زوجته الراحلة تبالغ فى الاعتناء به فتجلب له «الجاكيت» القطيفة من كل لون.. حقيقه والله لماذا كان كل هذا الاعجاب به! والذى لم يخفت مطلقاً رغم السنين! ترى هل الشعور لشخص ما يسفح زمان المرأة ويستحل منه أكثر من نصف عمرها.. الإحساس به ظل كامناً داخلها إلى أن رحلت زوجته وخططت بينها وبين نفسها للاقتراب منه.. ثم تمهلت وهى تختار أن تعطيه بعض الوقت ليلتقط الأنفاس ويستعيد نفسه ثم تسللت إليه.. اقتربت منه.. كان وحيداً وكريماً استجاب لها.. قبل دعواتها المتكررة... وهى اكتفت بوجوده واستمتعت بحضوره الطاغى.. لم تنظر فى هذا الزمن لأبعد من ذلك فلم يكن الوقت قد حان بعد من وجهة نظرها وطريقة تفكيرها ولم تهاودها قريحتهافى أن تعرض عليه الارتباط الذى عاشت تحلم به.. لم تحسب حساب أنه سيكون سريعاً – فى ارتباطه – هكذا ككل الرجال.

... ...

من داخل مكان ليلته ظلت ترقبهما حتى احتوى عروسه ليهرب من الجميع فى خطوات واسعة واثقة.. كادت أن تنادى عليه لتوقفه..

أرادت أن تستجير لتلفت الأنظار إلى أنهما ينويان الهرب إلا أن الجميع التفتوا إليها هى ونظروا لها بابتسامات واسعة ليؤكدوا طبيعية سلوكه وضرورته.. مشت عن بعد خلفهما إلى أن دخلا العربة المزينة بالزهور الحمراء.. لون ثورتها.

... ...

بعد كل ما جرى اجتهدت وعملت بإصرار على أن يظل خيط ولو كان واهيا يربطها به.. لوت ذراع نفسها وهى تتعمد أن تتذكر قبوله دعواتها.. فلم يصدها ولم يحجمها بأى أسلوب.. لم يرباً بنفسه من أن يمشى الطريق كل ليلة تلبية لها.. كان رفيقاً فى تعامله معها.. لم يعجل بصدها وصدمها.. تعامل فى علاقته بها بكثير من الرحمة رغم أنه ككل الرجال فهم حقيقة شعورها وأحلامها وفى نفس الآن اختار بقدرة وسرعة من يهفو اليها قلبه ربما منذ كانت زميلته النحيفة السمراء التائه جسدها النحيل وأطرافها الدقيقة بين ثورة جدائل شعرها الفاحم شديد الجموح.. عاشت أيضاً عارفة له أنه لم يبتر صلته بها بتراً لارجعة فيه حتى بعد أن أنجب الولد الذى عشقته من دون أطفال الدنيا.. وتساءلت هل لأنه استحوذ على كل نظرة ولفتة من وجه أبيه؟ أم لأنه الصغير.. الصغير كثير التأمل أيضا مثل أبيه؟

وعايشت «مها» لوناً مزدوجاً من العاطفة فقد انتصب الاحساسان داخلها بعملقه حب الأب وحب الابن.. كامرأه كان يداهمها كثيراً إحساس بالشفقة على نفسها من أن تحب اثنين بهذا القدر فى وقت واحدا. يتنازعانها.. ويشدانها فى طريقين معكوسين رغم أن لهما جوهر

واحد فالأول حب الرجل الحُلم والثانى حب الابن البديل وكثيراً كثيراً ماتمنت أن ينتصر إحداهما على الآخر حتى تتعقل دقات القلب منها.. وفكرت مـاذا لو عـرضت نفسـهـا عليـه ليشـخص ويصف الدواء وهو الطبيب الكبير ولكنها كانت تتراجع فهى أيضا العالمة بلغة دماء الجسد والتى منها دماء القلب فما هو داخلها لا تمحوه العقاقير ولا نتائج التحاليل. لأن ما بداخلها مادة لا يعرفها الطب يداريها جسدها وعقلها.. مادة اسمها الولع.

... ...

وظلت تتلقف أخباره وأسفاره... ككل الأطباء يعشق أجازة نهاية الأسبوع يقضيها قريبا من البحر.. فكانت تذهب إلى هناك وكأنها الصدفة وكم وشوشت لها الأمواج الثائرة مرة والأمواج المغلوبة على أمرها تارة أخرى.. تقترب الموجة من قدميها لتسرى لها بأنه وراءها مع سمرائه.. بأنه يلاعب الولد «ببلونته» الكبيرة.. وتصطنع الصدفة والدهشة ثم تحمل الوليد ألصق ما يكون الى قلب صدرها وتتمنى أمنيتها الشريرة الصغيرة فى أن يطول صراخه حتى تقضى أطول وقت معه تهدهده... إلى أن تحتوى كفه الصغير وتمشى خطوتين وهى تقول له: «الحمص.. الحق الحمص وقع منك.. الأرض هتأخذه الارض وحشة علشان وقعت «طارق» علشان تاخد الحمص منه» فيتوقف الصغير عن البكاء ويتلهى فى البحث عن «الحمص» وتكبر أمنيتها الشريرة فتستأذن من والدته السمراء والتى ترى ملامح وجهها بصعوبة من بين تلك الغابة من الجدائل السوداء التى تحيط بوجهها وتكاد تصل

إلى منتصف خصرها تستأذنها لتأخذ الصغير فى جولة وكأنها تتعمد بإصرار ومثابرة استجلاب ومعايشة الإحساس بالحنين والولع وهى تتشبث بالصغير فى حضن صدرها لصيقاً بلحم قلبها لتجوب الشاطئ باحثة عن بائع «حمص» ... وبعد بضع ساعة تعود به للدكتور «خالد» الذى يتلقفه منها وحين تلامس يداه يديها وهو يتناوله منها تحس بتأكيد إحساسها فتنتفض على وقفتها وهو يشكرها مرة أو يتبرم منها مرة أخرى من طول غيابها به فتضحك وهى تقول: «أعمل إيه كنت بأدور على أى بائع حمص».

وفى طريق عودتها تحس الرجفة والهزات المتتالية أقل حدة.. تعى هذا وهى أقل ثورة وتخبط.. فقد استراحت لتلك اللمسات العفوية منه وهو يتناول الطفل.. ترى هل تعرف معامل التحاليل سر ذلك التراسل الكيميائى البشرى بعد؟؟

... ...

وكعادة الليالى وهى تترى إثر بعضها.. تسرقنا وتستبيحنا فى سنوات العمر المكتوبة يبقى فى هذه الدنيا كل ما هو لا ينبض صلداً شامخاً إلا الانسان وحده الذى يكبر والذى ينطفئ مع هرولة تلك الأيام.. فقد تعرضت «مها» لعملية جراحية ضخمة أنتزع منها أعز خصوصياتها .. فرغوها من مضمونها كأنثى وإن بقى الشكل الخارجى كما هو! والأكيد أنها ستظل تعطى وتعطى فى مسالك شتى إلا العطاء المرجو والذى خُلقت من أجله.. سلبوها القدرة على حمل الأمل بين أحشائها ولو فى الأحلام.. تحولت إلى إمرأه ظاهرياً واستلبت باطنياً من القدرة على أن

يتخلق داخلها أمل صدفة أو مقصود مما جعلها أشد استماتة واستمساكاً بلحظات تعيشها وهى تحتوى الصغير «طارق» لصيقاً فى حضن قلبها حتى الألم حتى الضجر فينفلت منها ضاحكاً وهو يقول: «فاكرة حكاية الحمص أيام زمان» كبر ودخل المدرسة حتى صار له من العمر خمسة عشر عاماً ولم تعد تجدى معه الحكاوى.. يتأمل «مها» مثل أبيه ويضع كفه على جانب خده وهى تشرح له مبادئ الكيمياء.. إنها تتقن إيصال المعلومة إليه لأنه عملها فهى الكيميائية صاحبة المعمل الموثوق به.. الأيام توثق الصلة بين الاثنين وتباعد بين اثنين آخرين الدكتور «خالد» وزميلته القديمة وزوجته وتختار الانفصال حلاً لحياتها.. ويفيق الدكتور «خالد» على هذه الحقيقة التى باتت واقعاً معاشاً.

***

ويعود معنى الانكسار جسوراً يطل من عينيه رغم نجاحاته المتتالية فى عمله كجراح يعطى من روحه لهذا العمل ويتفانى فى وصل حياة هنا وحياة هناك، ينتزع الأمل انتزاعاً وهو يشخص الطريق طويلاً جميلاً لعمر آت لا ريب فيه.

لم يلتفت إلى «مها» حتى وهى تحاول أن تصلح ذات البين بينهما... وكانت صادقة فى ذلك إلى أن يئس المحيطون الأقارب والأصدقاء وتجمد الحال على ما أصبح عليه رغم ضراوة معايشة واقع الفراق بين اثنين صنعا سويا إنساناً ليجسد الوصل بينهما وبخاصة «طارق» الذى يكبر ويكبر كل يوم بمتوالية عددية محسوسة ومفرحة.

وينتبه الدكتور «خالد» يوماً إلى وجود «مها» في عيادته تطلب الخلاص الأكيد.. فيسمع نقر قلبها.. يتأكد من ضعف نبضها ويقدم لها العلاج والسؤال المستمر ومتابعة الاهتمام بها.. حتى «طارق» لم يفارقها.. كبر وشعر بأنه يرد جزءاً من اهتمامها وعنايتها به.. وفي إحدى زيارات الدكتور «خالد» الصحية لها. قلباً «اللي فات» واعترف لها بأنه كان يفهم مقصدها القديم ونيتها في الارتباط به.. ضحكا سوياً وتوغل أكثر مع الذكريات وهو يعترف لها بأنه فعلاً تعمد ألا يدعوها إلى زواجه خوفاً من جرح مشاعرها.. ضحكا سوياً وإن تنهدت «مها» لهذه الحقيقة رغم معرفتها لها.. وأخيراً انتقل من مقعده بجانب سريرها وجلس قبالتها أقرب.. تناول كفيها ولثمهما.. سحبتهما بخفة في لمح البصر وهي تسأله عن إمكانية أن تنزل إلى معملها في الغد ولو بالتدريج فتبدأ بساعة على أن تزيدها يوماً بعد يوم.. وضع يديه على كتفيها ليبقيها مكانها وهو يهمس لها: «تريدين أن تشغليني وتصرفيني عما أتيت لأقوله لك! مثلما كنت تفعلين مع «طارق» بحكاية «الحمص» ظل ابتسامة عبرت بوجهها وإن شعرت بأن الدقائق التالية سيكون فيها مواجهة جاءت في غير توقيتها. وما حسبته حدث فعلاً وهي تسمعه يقول: «بداية أريد أن أقول لك بأنني أتكلم مع امرأة لها عقل أحترمه تماماً.. ولا داعي أن أقول لك بأن ما قد ترفضينه بالأمس تتلهفين عليه اليوم.. فما رأيك في أن «نتزوج» شعاع رضا تسرب داخل روحها للحظة واحدة وهي تتصور لو أن هذه العبارة قيلت لها قبل سنوات طويلة في أوانها والتي طالما انتظرتها لربما كانت ساعتها تفتتت ذرات

ثـم تجمعت مرة أخرى بجناحين تطير بهما من الفرحة وهزت رأسها بنوع من الوهن كأنها تخرج منها هذه الخيالات والإحساس بقسوة المواجهة يتغلغل ويتمكن من كل نفسها لأنها ببساطة أتت فى غير توقيتها.. ثم أطرقت لبرهة وهى تحدق فى ألوان غطاء سريرها ولما رفعت عينيها إليه كان شاخصاً إليها بكل نفسه.. فهل ستوصل بدورها حياة معه؟ وتكلمت بنوع من الاستحياء فى البداية وهى تقول بصوت خفيض: «خالد أنا بدورى أتكلم مع رجل له عقل وأسلوب حياة أحترمهما حقاً بل وأعجب بك فالإعجاب معنى إذا حدث مرة لا يخبو ولا يزول على مر الأيام مهما طالت فستبقى أبداً مستحوذاً على كل قناعتى بك وبطريقة حياتك وإننى سأستخدم نفس عباراتك وإن اختلفت قليلاً.. فما كنت بالأمس أتمناه وأشتهيه فأنا أرفضه اليوم».. أجفل الدكتور «خالد» وانسحب من مكانه أمامها ليجلس على المقعد بجوار فراشها كما كان وهو يسألها بإصرار «ولماذا»، فالتفتت على جنبها واحتضنت الوسادة وتمددت نصف راقدة كأنها تريد أن تلتصق بفراشها لتستجمع نفسها وهى تقول: «لأن المرأة التى أحبتك حتى الولع فى زمن ما لم تعد هى ولا حتى شبيهة لها.. إقْتُلِع منى الكثير وسواء كان هذا على يد جراح مثلك أو على يد الأيام فأنا لم أعد أنا وإن بقى اسمى هو.. هو.. و.. و.. و..».

مرت الدقائق إثر بعضها بينهما والصمت والدهشة هما اللغة التى يتبادلانها.. ودق جرس الهاتف أكثر من مرة حتى سمعت على ماكينة التسجيل صوت «طارق» ابنه فلم تتحرك. ولم تمد يدها لتخطف «البوق» رغم أنها سمعته يقول: «أعرف أن بابا عندك ليطمئن ردى علىّ أرجوك».

بعدها نظرت إلى الدكتور «خالد» وهى تهمس بهدوء: «هذا هو ما بقى لى وسأظل بالنسبة له أمًا فعلاقة الأمومة لا تأخذ منها الأيام ولا الأحداث مهما كانت جساما لأن علاقتى «بطارق» تحمل معنى قدسية المشاعر التى يستحيل أن تمس»..

نظر الدكتور «خالد» إلى ساعته وتناول حقيبته.. ونسى أن يكتب «روشتته» واستأذن.. قام متثاقلاً وهو يخطو نحو الباب.. قامت «مها» من فراشها ووقفت وكفّاها مستندان على «حلق» الباب وهى تقول له: «إوعى تنسى تلم الحمص» فأدار رأسه إليها وتبادلا ابتسامة ذات معنى.. ثم أغلق الباب خلفه.

كتب للمؤلفة

المؤلفة چيلان حمزه

حاصلة على بكالوريوس - كلية الأعلام - دفعة ١٩٧٥ قسم إذاعة

١ - قلب بلا قناع	رواية	دار الفكر العربى	١٩٦٠م
٢ - اللعبة والحقيقة	رواية	دار الفكر العربى	١٩٧٠م
٣ - والزوجة الهاربة	رواية	كتاب اليوم	١٩٧٠م
وألملم عقدى بغضب	نفس الرواية	وقد نشرت فى العراق بهذا الاسم	١٩٧٠م
٤ - قدر الآخرين	رواية	كتاب الاذاعة والتليفزيون	١٩٧٤م
٥ - زوج فى المزاد	رواية	كتاب الشعب	١٩٧٥م
٦ - مسافرة مع الجراح	رواية	كتاب اليوم	١٩٨١م
٧ - الحبيبة	رواية	كتاب اليوم	١٩٨٨م
٨ - الأعمال الكاملة	الجزء الأول	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٢م
٩ - كـــواليس راديو مونت كارلو	نشأه تطور وتمويل من خلال الكواليس	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٣م
١٠ - المعجزة	قصص اسلامية قصيرة	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٤م
١١ - حق ولدى فى الحياة	طريقة معاملة المعوق ذهنيا		

١٢ – الأعمال الكامله	الجزء الثانى	انهيئة العامة للكتاب	١٩٩٥م
١٣ – جرح الحب	رواية	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٦م
١٤ – صـــلاح طاهر	سيرة ذاتية	كتاب اليوم	١٩٩٨م
فيلسوف الألوان		الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٨م

١٥ – رسالة ماجستير عن دور البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى فى التنمية الثقافية

دراسة تطبيقية على القناة الثانيه ١٩٩٦م

١٦ – تعد لبحث الدكتوراة عن تأثير التليفزيون على النشء والشباب

دراسة تحليلية وتطبيقية على القناتين الأولى والثالثة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هل تعود..؟	٧٩
ضراوة الحب	٨٣
الصفقة	٩١
أطوار للحب	١٠١
الرزق	١١١
الشفقة	١١٥
الزوج	١١٩
جمالات	١٢٣
فى المطعم	١٢٩
المحاولة الثانية	١٤١
الزلزال والحب	١٤٥
لماذا لم تدعونى لفرحك؟!	١٥١

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٠ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6629 - 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب